سياسة روما الاستراتيجية والعسكرية في سوريا (٦٤ ق.م-٧٩ م)

Rome's Strategic and Military Policy in Syria (64 BC-79 AD)

م.م. إخلاص لطيف رشيد

Asst. Inst. Ekhlas Latif Rasheed

الجامعة العراقية/ كلية التربية للبنات/ قسم التاريخ

Iraqi University / College of Education for Girls/ Department of History

الملخص

مثّلت سوريا هدفًا استراتيجيًا لروما؛ بسبب موقعها على الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط؛ لذلك انصب اهتمامهم على الشريط الساحلي الممتد من أنطاكية في الشمال إلى تخوم مصر في الجنوب؛ لكونه يضم أهم المدن الفينيقية؛ لذلك استطاع الرومان القضاء على خطر القراصنة الذين كانوا يزعجون حركة التجار الرومان. وبعد الاحتلال الروماني لسوريا سنة ٦٤ ق.م كسبت روما عداء الفرس في شرق الفرات؛ لأنهم كانوا يطمعون في الوصول إلى مياه البحر المتوسط، وهذا كان محور سياسة روما الاستراتيجية في سوريا حول هذا العِداء، والذي انعكس في التعامل مع الأمراء المحليين؛ ومما زاد من نار العداوة بينهما الرغبة في السيطرة على الطريق التجاري بين الشرق والغرب، فاثنان من الواردات الشرقية المهمة بالنسبة للرومان- وهما الحرير من الصين والبهارات من الهند- زاد الطلب عليهما، حتى أصبحت تجارة هذه السلع واسعة جداً، وكان الرومان يدفعون ثمن الواردات الآسيوية بالعملة الذهبية بشكل أساسي، عندها جمع الفرس أرباح طائلة بوصفهم وسيطًا تجاريًا للحرير الصيني.

الكلمات المفتاحية: السياسة، الرومان، الاستراتيجية.

Abstract

Syria represented a strategic target for Rome because of its location on the eastern shore of the Mediterranean Sea. Therefore, their attention was focused on the coastal strip extending from Antioch in the north to the borders of Egypt in the south, as it included the most important Phoenician cities. Therefore, the Romans were able to eliminate the danger of pirates who were disturbing the movement of Roman merchants. After the Roman occupation of Syria in 64 BC, Rome gained the hostility of the Persians east of the Euphrates, because they coveted access to the waters of the Mediterranean, and this was the focus of Rome's strategic policy in Syria around this hostility, which was reflected in dealing with the local princes. What increased the fire of hostility between them was the desire to control the trade route between the East and the West, as two of the eastern imports were important to the Romans. The demand for them increased, such as silk from China and spices from India, until the trade in these goods became very extensive, and the Romans used to pay for Asian imports mainly with gold coins. The Persians then collected huge profits as a commercial intermediary for Chinese silk.

Keywords: Politics, Romans, Strategy.

المقدّمة

اقتضت سياسة روما التوسعية ضم سوريا إلى الإمبراطورية الرومانية؛ إكمالًا لمشروعها في جعل البحر المتوسط بحيرة رومانية؛ وحماية مناطق نفوذها في آسيا الوسطى، وحماية تجارتها في شرق المتوسط. هذا العمل الذي قام به الجنرال الروماني بومبي وضع روما وجهًا لوجه مع الإمبراطورية الفارسية على طول خط نهر الفرات في الشرق، ومنذ ذلك الوقت تمحورت سياسة روما في الشرق حول عقدة الخوف من الفرس على أمن سوريا واستقرارها، فقد كان الفرس يحلمون بالسيطرة عليها للوصول إلى مياه البحر المتوسط وموانئه التي كانت تمثل نهايات خطوط التجارة الشرقية. ومنذ ذلك الحين كان على الساسة الرومان التعامل مع سوريا بحساسية كبيرة.

أولًا: بحكم أن مركز الثقل انتقل من الغرب (مدينة روما) إلى الشرق (سوريا ومصر) منذ أنْ جعل منه قيصر قاعدة له في صراعه مع بومبي، **ثانيًا**: تقدير الرومان لحجم الثروات الاستراتيجية: (القمح، والبخور، والبهارات، والحرير) التي يمكن الحصول عليها عند سيطرتهم على هذا الشرق الثري، والمتحكم بأهم خطوط التجارة في العالم القديم.

ثالثا: إن السيطرة على سوريا كانت تعني وضع عاصمة الإمبراطورية الفارسية، على مرمى حجر مِن معسكرات الجيش الروماني المنتشر على طول خط نهر الفرات وفي البادية السورية، أي أن الفرس شعروا أنهم مهددون في عقر دارهم، ممّا جعلهم ينتهجون سياسة عدوانية اتجاه الرومان في سوريا، لاسيما أن الرومان كانوا يرددون أنهم في صدد التحضير لشن حملة عسكرية عليهم.

إن هذا البحث يشرح سياسات روما الاستراتيجية التي انتهجتها على الصعيدين الدبلوماسي والعسكري في شرق المتوسط، في التعامل مع الفرس؛ الخطر الخارجي على سوريا، وفي التعامل مع الأمراء المحليين سواء كانوا مؤيدين أم معارضين لها، خلال الفترة الممتدة من سنة ٦٦ ق.م وهو تاريخ دخول بومبي إلى سوريا، حتى نهاية عهد تيبيروس ثاني أباطرة روما سنة ٣٧م، بعيدًا عن التحيز لإحدى الإمبراطوريتين الاستعماريتين، وقد اقتضت طبيعة الموضوع والمادة المتوافرة أن يكون على مبحثين يسبقهما تمهيد بيّنت فيه (طبيعة سياسية روما في شرق المتوسط).

وقد خصصت المبحث الأول للسياسة الرومانية في سوريا بين (٦٤ – ٣٠ق.م)، وجاء على أربعة مطالب: درست في المطلب الأول: استراتيجية روما السياسية في عهد بومبي، وفي المطلب الثاني: استراتيجية روما العسكرية في مواجهة الفرس (٦٦ – ٥٠ ق.م)، وفي المطلب الثالث: استراتيجية روما السياسية في عهد يوليوس قيصر، وفي المطلب الرابع: استراتيجية روما العسكرية في مواجهة الفرس (٤٤ – ٣١ ق.م).

أمّا المبحث الثاني فقد خصصته للسياسة الرومانية في سوريا بين (٣٠ ق.م – ٧٩م)، وجاء على ثلاثة مطالب: درست في المطلب الأول: استراتيجية أغسطس السياسية والعسكرية (٣٠ ق.م – ١٤م)، وفي المطلب الثاني: استراتيجية أغسطس السياسية والعسكرية في مواجهة الفرس (٣٠ ق.م – ١٤م)، وفي المطلب الثالث: استراتيجية الإمبراطورية الرومانية لحفظ أمن حدودها الشرقية، ثم ختمت البحث بأبرز النتائج التي توصّلت إليها.

التمهيد: طبيعة سياسة روما في شرق المتوسط

قبل دراسة طبيعة سياسة روما في شرق المتوسط، تجدر بنا الإشارة إلى أن الولايات الرومانية لم تكن جميعها مثل بعضها بعضا، فالولايات الشرقية كانت مختلفة تماما عن الولايات الغربية؛ كونها تحمل إرثًا حضاريًا يتفوق على إرث الرومان أنفسهم، وبالتالي هي عالمٌ حَلَّ فيه الرومان كمحتلين، فرضوا وجودهم بقوة السلاح فقط، لا باعتبارهم رسلا أتوا بحضارة أسمى من حضارة البلاد التي دخلوها، كما حدث معهم في الولايات الغربية في بلاد الكلد، والجرمان، وشبه الجزيرة الإيبيرية (محفل و الزين، ٢٠٠٥م، صفحة ١٤٦، ٢).

ولما كانت جميع التوسعات الرومانية تتم بحد السيف؛ كان الجيش الروماني حال إخضاعه لإقليم ما، يحوله إلى ولاية تابعة للدولة، فيتم توزيع الحاميات العسكرية على الحدود، وعلى المدن والحصون والقلاع والأماكن الحيوية فيه، كما يتم فرض الجزية على السكان (ضريبة الرأس، وضريبة الأرض)، ثم يقوم مجلس الشيوخ بتعيين حاكمٍ على الولاية الجديدة، يكون غالبًا قنصلًا سابقا Pro Console أو بريتورًا Pro Praetor سابقًا.

وقد توزعت اختصاصات الحاكم في الولاية ما بين الشؤون العسكرية والإدارية والقضائية، فهو القائد الأعلى للقوات الرومانية المرابطة في الولاية، تناط به مهمة الحفاظ على حدودها، وتقع على مسؤوليته حفظ الأمن والسلام في أرجائها ومراقبة العلاقات بين المجتمعات المختلفة في الولاية وتحركاتها (أيوب، ١٩٩٦م، صفحة ١٨٦/ ١٨٨).

تساعده هيئة إدارية تنفيذية تتألف ممّا يقارب ثلاثين موظفاً، وكان لهذه الهيئة سلطة على السكان المحليين، وعلى المواطنين الرومان المقيمين، وكان على هذه الهيئة مراعاة الحقوق والامتيازات والعادات والتقاليد السائدة في كل ولاية. وكان على الوالي يقوم

بحملات التفتيش؛ بهدف الحفاظ على أمن الولاية، كما كان عليه أن يحضر الاحتفالات التي تقام في الولاية بصفته ممثلًا عن الإمبراطور (السليمان ع.، العدد ٦٧١/ ٢٠١٩).

إن جميع ما تقدم من معطيات لا يوصف إلا الحالة العامة بخطوطها العريضة جدا، فإضافة إلى كل ما تقدم، كان لكل إقليم من أقاليم الدولة الرومانية؛ ممّا تم اخضاعه وتحويله إلى ولاية رومانية خصوصية مميزة له، بنت روما على أساسها استراتيجيتها في التعامل مع مشاكلها الداخلية والخارجية، وتم حلها بما يتناسب مع مصلحة الإمبراطورية الرومانية أولا، ثم مصالح المواطنين الرومان الذين استوطنوه ثانيا، ثم مصالح الطبقة البرجوازية فيه ثالثا. لكن مشكلة الرومان الدائمة - وفي جميع الأقاليم- أنها كانت ترفض أن ترى جارًا قويًا على حدودها، أمام البحر أو الصحراء أو جارًا عاجزًا لتخضعه فيما بعد، وهكذا تلخصت مشكلتها في سوريا بالفرثيين (الفرس) الذين كانوا إمبراطورية مرهوبة الجانب في شرق الفرات، لها أطماعها الاستعمارية في غربه.

«المبحث الأول»

السياسة الرومانية في سوريا (٦٤– ٣٠ق.م)

المطلب الأول: استراتيجية روما السياسية في عهد بومبي

لقد كانت الولايات الرومانية في كل من سوريا وفلسطين وشمال شبه الجزيرة العربية (بلاد الأنباط)، وولاية ما بين النهرين (التي لم تخضع لحكم الرومان إلا حقبة قصيرة من الزمن)، تؤلف عالما تتجاوز وحدته الثقافية والاقتصادية الاختلافات المحلية، وقد كان لهذا العالم تأثير عميق على حضارة العالم الروماني (محفل و الزين، ٢٠٠٥م، صفحة ٢/ ١٧٤).

وقد تمتعت سوريا في هذا العالم بموقع استراتيجي مهم على الشاطئ الشرقي للمتوسط، أمّا من ناحية الثروة فقد صنفت بعد مصر، وكانت عاصمتها أنطاكيا Antiocheia ثالث مدينة في العالم المعروف؛ حيث كانت ندًا للإسكندرية وروما، بلغ عدد سكانها نحو ستمائة ألف نسمة، حتى أنها كانت محط أنظار الجميع، وإحدى عواصم الثقافة الهلنستية، مثلما كانت موقعًا استراتيجيًا وحصنًا منيعًا في مواجهة جميع الطامعين بسوريا (بابليون، ١٩٨٧م، صفحة ٤٥).

لقد عدّت روما سوريا منطقة مهمة لحماية نفوذها ومصالحها في الشرق، ولا سيما المصالح التجارية، إذ كانت موانئ البحر المتوسط تمثل نهايات خطوط التجارة الشرقية.

وقد عَجَّل الانهيار الأمني فيها، وتراجع قدرة السلوقيين على فرض الاستقرار فيها (سارة، ٢٠٠٩، صفحة ٣٧٠)، واحتلال ملك أرمينيا تريجان الثاني Tigranes II لمناطق ما بين النهرين من الفرس في سنة ٨٣ ق.م، واحتلاله لسوريا أيضا في أواخر العام نفسه، إذ استطاع أن يصل حتى عكا، عَجَّل في رغبة الرومان في اخضاع سوريا، وبالفعل فقد تم هذا على يد الجنرال الروماني بومبي Pompey في سنة ٦٤ ق.م، والذي حول سوريا إلى ولاية رومانية (Debié، ٢٠١٨، صفحة ١٢).

فعندما وصل بومبي إلى سوريا ليحل مشاكلها باسم روما، تلقى في أنطاكيا نداء من أنطوخيوس الثالث عشر يرجوه فيه أن يعيده إلى عرشه، لكن بومبي الذي كان يعرف ما تخطط له روما لحل مشاكل سوريا ومنازعات ملوكها، والأخطار التي تهددها في الشمال والشرق رفض طلبه، مفضلا ضمها وجعلها ولاية رومانية.

لقد كانت الأوضاع في سوريا تمهد السبيل لضمها من قبل روما، فقد أدركت المدن الهيلينية والمتهلينة فيها، والتي كانت تمثل مركز الثقل السياسي والاقتصادي والاجتماعي أن الوضع العام لا يسمح لها، إلا بخيارين لا ثالث لهما؛ إما الفرس وإما الرومان، لاسيما بعد انعدام الأمل بظهور ملك سلوقي قادر على فرض الاستقرار والأمن فيها، ويبدو أن السوريين فضلوا جهنم الرومان على جنة الفرس أو الأرمن لاعتبارات مختلفة (Debié، ٢٠١٨، صفحة ٢٧٧).

لقد خول مجلس الشيوخ الروماني بومبي أن يتخذ جميع التدابير الاستراتيجية والإدارية اللازمة لتأمين مصالح روما في شرق المتوسط، ففضل بومبي إعادة ترتيب منطقة شرق المتوسط (Wijlick و Hendrikus، ٢٠١٣)، أولًا ابقى بومبي على أنطاكيا عاصمة لسوريا، بعد أنْ منحها امتيازات كثيرة؛ إدراكًا منه لأهميتها كمدينة حصينة وقلعة منيعة في مواجهة الفرس؛ فالحاميات العسكرية التي كانت فيها، كانت تحمي سكانا مِن أجناس مختلفة (السليمان ع.، العدد ٦٧١/ ٢٠١٩، الصفحات ١٦٧-١٦٨).

ويبدو أن بومبي قرر الاحتفاظ بعدد من الأمراء المحليين كأصدقاء amicitia أو وكلاء لروما، وفضل بومبي في إدارتها لسوريا؛ لكسب الجماعات المحلية لصفه، وكانت هذه السياسة متبعة في أكثر مِن ولاية رومانية؛ إذ أدرك بومبي أنه من الصعب إدارة سوريا بغير هذا النوع مِنَ الحكم؛ لذلك اعترف بالأمير العربي أبجر الثاني Abgarus II حاكمًا على مدينة الرُها عاصمة مملكة أوسرهوني Osrhoene في كيليكيا الشرقية. واعترف بالمملكة المكابية في فلسطين، وبإمارة حمص Emesa في وسط سوريا، ومنَحَ سلوقية بيرية Seleuceia Bieria (السويدية) على نهر العاصي امتيازات كثيرة (السليمان ع.، العدد ٦٧١/ ٢٠١٩، الصفحات ١٦٧-١٦٨).

والأهم أنَّ بومبي اعترف بـ أنطوخيوس Antiochus ملكاً على كومَّاجيني Commagene، وزاد في أملاكه سلوقية على الفرات (والتي تعرف أيضا باسم زجما Zeugma، شمال جرابلس)، والتي يصفها سترابون «بقلعة بلاد الرافدين»، كما زاد في أملاكه أراضي أخرى في شمال بلاد الرافدين. إنّ منح بومبي هذه المدينة لأنطوخيوس، والتي بيّن سترابون أنّها جسر على نهر الفرات «ويقع هنا جسر على الفرات» باتجاه المملكة الفارسية، يبين بشكل جلي أن بومبي أراد أنْ تكون هذه المملكة حليفًا له، وفاصلًا بينه وبين الفرس، وإلّا ما كان منحها هذا الممر الاستراتيجي، كما أنه أراد أن يوفر عددًا كبيرًا منَ الجنود الرومان، كان عليه أن ينشرهم في كوماجيني، في سبيل حفظ أمنها، فيما لو حولها إلى ولاية رومانية (Wijlick و Hendrikus، ٢٠١٣، الصفحات ٤٩-٥٠).

أمّا في جنوب سوريا فقد أعلن اتحاد المدن العشر Decapolis في حوران وشرقي الأردن ولائه لروما، مقابل احتفاظ هذه المدن باستقلاليتها، والتي عدها الرومان جزءاً مِن عالم البحر المتوسط المتحضر، بينما ترك المناطق المحيطة بها بأيدي العشائر العربية المنتشرة هناك (Gawlikowski، ١٩٩٧، صفحة ٤٣).

ولم يقم بومبي بغزو الأنباط، الذين ضموا دمشق لدولتهم لعدة عقود، خلال فترة انهيار قوة السلوقيين، وترك لهم حريتهم واستقلالهم؛ ليكونوا إمارة فاصلة بينه وبين هجمات القبائل العربية المنتشرة على أطراف البادية (Bryce، ٢٠١٤، صفحة ٢٢٢).

ولمّا كانت جبال لبنان الشرقية تقع في قلب سوريا، قام بومبي بهدم حصون الأيطوريين Ituraean فيها، خلال رحلته من أنطاكيا إلى دمشق، مُدعيًا أنّها حصون تهدد الأمن والاستقرار، وهذا الادعاء كرسه سترابون: «ويشغل الأيطوريون العرب المناطق الجبلية كلها (جبال لبنان الشرقية) وهؤلاء قطاع طرق ولصوص، أما سكان السهول فهم على العكس: فلاحون، ويعتدي قطاع الطرق على الفلاحين ويضطهدونهم، الأمر الذي يدفع هؤلاء لطلب العون من مختلف الجهات، وتعد التحصينات هي المناطق التي يقيم فيها اللصوص ومنها يشنون غزواتهم.. وقد هدم بومبي هذه الحصون كلها» (سترابون، ٢٠١٧، صفحة ٢/ ١٦).

لقد انصبت اهتمام بومبي على الشريط الساحلي الممتد من أنطاكية في الشمال إلى تخوم مصر في الجنوب، والذي كان يضم أبرز المدن الفينيقية، التي كانت تشكل مراكز الفعاليات البشرية والاقتصادية، وسعيًا من بومبي لإعادة فرض الأمان والاستقرار في هذا الساحل؛ قام بالقضاء على خطر القراصنة الذي كان يزعج روما؛ إذ اتخذ القراصنة مِن كيليكيا والجزء الشمالي الغربي مِن سوريا منطلقًا لهم. لكنهم -أي القراصنة- لم يكونوا الخطر الحقيقي الداهم الذي يهدد أمن سوريا واستقراها، أو أمن أي ولاية رومانية في الشرق. في الواقع لقد كان الفرثيون Parthians (الفرس) هم من يشكل ذلك الخطر، الذي شغل الرومان عن أمور الحكم في شرق المتوسط، وشغل بال الأباطرة والولاة وجنرالات الجيش على حد سواء (سارة، ٢٠٠٩، صفحة ٣٧٠).

وهكذا ستتمحور السياسية الرومانية طوال ثلاثة قرون حول عقدة الخوف من الفرس، الجار الشرقي القوي الذي لم يستطع الرومان التغلب عليه.

المطلب الثاني: استراتيجية روما العسكرية في مواجهة الفرس (٦٦ – ٥٠ ق.م)

مثل ما كان عند الرومان طموحات استعمارية، كان عند الفرس طموحاتهم؛ إذ طالبوا بسوريا وفلسطين، وأحيانا بمصر التي احتلوها في زمن قمبيز في سنة ٥٢٥ ق.م.

وهكذا نظر الفرس إلى سوريا وفلسطين والعراق، على أنها مناطق فارسية انتزعها منهم الإسكندر المقدوني الذي هدم الإمبراطورية الأخمينية في سنة ٣٣٣ ق.م. وقد شكل ادعائهم هذا تهديدًا على أمن ولاية سوريا الرومانية واستقرارها؛ في سياق الحروب التي كانوا قادرين من وقت لآخر على شنها؛ لغزو وتدمير هذه المنطقة، والاحتفاظ بها لفترات قصيرة أحيانا (Lewis، ١٩٩٦).

أمّا **الرومان** الذين حاربوا مثراداتيس السادس Mithradates VI ملك البونت Pontus في آسيا الصغرى، منذ أيام الجنرال الروماني سولا Sulla بشراسة، فوجدوا أنفسهم قد قضوا على أحد أهم الشخصيات التي أرادت أن تملأ الفراغ في شرق المتوسط في أعقاب تراجع قوة السلوقيين، لاسيما أنه كان يدعي أنه وريث الملوك الأخمينيين الشرعي في الشرق، وهكذا لما تمكن الرومان مِن القضاء عليه، وجدوا أنفسهم ورثة لادعاءاته في شرق المتوسط، وأنهم أصحاب الحق في ملء هذا الفراغ مدفوعين بطموحات السيادة العالمية (Serena, 2019, p. 132).

يضاف إلى هذا وذلك أنَّ الرومان منذ أنْ دخلوا إلى سوريا بقيادة الجنرال بومبي سنة ٦٦ ق.م، ورثوا العداء القديم الذي كان بين الفرس والدولة السلوقية، وقد أدت سياسة الرومان التوسعية إلى الاصطدام بمطالب الفرس التاريخية ورغبتهم بالامتداد نحو الغرب (فرزات، ٢٠٠٥م، صفحة ١٣٨).

إذ لم يكتف بومبي بسوريا، فقوض أركان مملكة أرمينيا في شمال بلاد فارس، ما جعل أرمينيا نقطة توتر أخرى بين الطرفين، لقد بدأ الصراع عليها منذ تنازع الملك تيرجان Tigranes على العرش مع ولده، الذي يحمل نفس اسمه، وطلب تيرجان

الابن الدعم من الفرس، بينما طلب تيرجان الأب الدعم من الرومان، وقد تمكن بومبي بواسطة قواته العسكرية من أسر تيرجان الابن وحسم النزاع لصالح تيرجان الأب، الذي صار ضمن أصدقاء روما في الشرق سنة ٦٦ ق.م.

وطالب الفرس بإطلاق سراح تيرجان الابن، لكن بومبي رفض ذلك، ممّا أنذر بصدام عسكري بين الطرفين، فاتخذ أولوس غابينوس Aulus Gabinius- أحد أشهر جنرالات بومبي- جميع التدابير العسكرية للزحف شرقًا، وسار حتى وصل نهر دجلة، ممّا أرعب الفرس وجعلهم يطالبون باحترام خط الحدود المتمثل بنهر الفرات.

شعر بومبي بأنه المنتصر فوقّع مع الفرس معاهدة سلام سنة ٦٤ ق.م، وهي السنة ذاتها التي أعلن فيها الرومان تأسيس ولاية سورية الرومانية Provincia Syria (Babnis، ٢٠١٨، صفحة ٩)، وهكذا صار ملك الفرس من بين أصدقاء روما في الشرق. في الواقع إن مطالبة الفرس للرومان بالاعتراف بنهر الفرات كحدود بين الإمبراطوريتين، وقبول الرومان بذلك، كان يعني اتفاقًا ضمنيًا على اقتسام تركة ملك أرمينيا في شمال بلاد الرافدين؛ في منطقة الجزيرة الفراتية الشمالية وأربيل Adiabene (Wijlick و Hendrikus، ٢٠١٣، صفحة ٤٨).

لقد كان الفرس ممتعضين من ظهور الرومان في شرق المتوسط؛ إذ نظروا إلى بومبي على أنّه الإسكندر الجديد الذي أتى ليقوض أركان ملكهم، ولاسيما أنه قضى على مثراداتيس الذي كان يدعي أنه وريث الملوك الأخمينين (Serena، ٢٠١٩، صفحة ١٣٢).

لقد كان بومبي أول من بعث برسالة إلى ملك الفرس لم ينعته فيها بملك الملوك؛ كما اعتاد سكان الشرق أن ينعتوه، وكان هذا تصريحا واضحا من الرومان على رغبتهم في تقليص دور الفرس إلى لاعب ثانوي في المنطقة. ولما كانت بلاد فارس بعيدة عن إعادة الترتيب الذي قام بها بومبي في شرق المتوسط، فإن هذا سمح لها أن تُعبر عن سخطها على سياسة الرومان في شرق المتوسط، إذ كان الملك فرهاد الثالث

Phraates III مستاءً من تسوية الأوضاع في شرق المتوسط على هذا النحو؛ لصالح الرومان، فبدأ يتحدى مقررات بومبي بالوسائل العسكرية، فاحتل منطقة ما بين النهرين بما فيها أربيل.

وهكذا أكدت الأحداث أنه من السذاجة أن يؤجل بومبي الصدام بالفرس. إن هذه السياسات الفارسية حقنت الأجواء وأنذرت بحملة عسكرية رومانية وشيكة على بلاد فارس في سنة ٥٥ ق.م؛ إذ بدأ غابينوس حاكم سوريا الروماني يعد العدة، ويبدو أنه وجد الغطاء الشرعي لها؛ بذريعة تسوية الخلافات بين أمراء البيت الفارسي على العرش، فكان لهذه الخطوة دورها في تعميق العداء بين روما وفارس. ولما كانت مصر مغرية للرومان أكثر من بلاد فارس، انشغل غابينوس بإعادة ملك مصر بطليموس الثاني عشر Ptolemy XII (الزمار) إلى عرشه بواسطة الجيش الروماني، مقابل رشوة مالية حصل عليها منه (Wijlick و Hendrikus، ٢٠١٣، صفحة ٧٠).

لقد استطاع المؤرخون في العصر الحديث كشف **قضايا أخرى** غير سوريا وأرمينيا ونزعات العرش الفارسي وتوثيقها، كان من بينها -وهي مهمة طبعا- السيطرة على الطريق التجاري بين الشرق والغرب، فاثنان من الواردات الشرقية المهمة بالنسبة لعالم البحر المتوسط؛ وهما الحرير من الصين والبهارات من الهند وجنوب شرق آسيا، قد زاد الطلب عليها، حتى أصبحت تجارة هذه السلع واسعة جداً، والتشريعات الرومانية تكشف عن رغبة الرومان في حمايتها، وقلقهم المستمر خشية التدخل بها.

وبسبب هذه التجارة كان العالم الروماني على اتصال مع حضارات آسيا البعيدة، مع الصين ومع الهند. ورغم عدم وجود علاقات منتظمة، وعدد قليل من الزيارات المتبادلة، إلا أن منتجات كلا البلدين كانت مطلوبة جدا، وكان الرومان يدفعون ثمن الواردات الآسيوية بالعملة الذهبية بشكل أساسي، علما أنّ القليل ممّن كانوا في عالم البحر المتوسط استطاعوا الدفع بالعملة الذهبية مقابل الحرير الصيني والبهارات الهندية.

وفي الطرف المقابل رغب الصينيون والهنود بالعملة الذهبية الرومانية، وقد حصلوا منها على كميات كبيرة مقابل الواردات التي كانوا يصدرونها إلى موانئ المتوسط، عندها جمع الفرس أرباح طائلة بوصفهم وسيطًا تجاريًا للحرير الصيني (Wijlick و Hendrikus، ٢٠١٣)، لاسيما أنهم استطاعوا الاحتفاظ بدولة واحدة متحدة من جبال القوقاز وبحر قزوين في الشمال، إلى الخليج العربي في الجنوب، ومن نهر الفرات في الغرب حتى بلاد الهند في الشرق، وقد امتدت الإمبراطورية الفرثية في بعض الأحيان حتى وصلت إلى حدود الصين (فرزات، ٢٠٠٥م، صفحة ١٣٦)، كما أنهم كانوا قادرين في فترة محددة على أنْ يوسعوا حكمهم باتجاه آسيا الوسطى، بعد ذلك سيطروا على تجارة الحرير مِن نقطة انطلاقها.

وهكذا كان هناك شكاوى كبيرة في الغرب من نزيف السبائك الذهبية الرومانية باتجاه الشرق، ورغم أن الاقتصاد الروماني نجا مِن هذا الاستنزاف بشكل مدهش، إلا أنّه كان أمرًا مزعجًا بالنسبة لرجال السياسة في روما، والأكثر ازعاجًا بالنسبة لهم؛ هو أن الطريق الأكثر اختصارًا من موانئ البحر المتوسط إلى الشرق الأقصى، كان يمر عبر الأقاليم التي تسيطر عليها الدولة الفارسية، وهذا ألزمهم بدفع إتاوات ومكوس باهظة للفرس (Lewis، ١٩٩٦).

لم يكن الرومان معتادين أن يدفعوا لأحد، إنما الذي اعتادوا عليه هو العكس تماما؛ إذ فرضوا الضرائب على جميع سكان عالم البحر المتوسط، لقد كان الرومان رجال حرب بارزين، والخيار الوحيد الذي كان أمامهم لقرون هو أن يقوموا بالغزو والتوسع، لقد كانت الحرب مهنتهم، أو لنقل خير تعبير عنهم (هاملتون، ١٩٩٧، صفحة ١٧١).

فحرص روما الشديد على سيادتها واستقلالها كان يدعوها للقضاء على استقلال غيرها وتقويضها، وبالتالي شن الحروب عليها، ومِن ثم التوسع واحتلال أرضهم والسيطرة على مواردهم، وهذه الحروب عبارة عن حلقة مفرغة؛ لأن توسيع رقعة

السيطرة والاحتلال يضاعف الواجبات الدفاعية وظروف الصراع، فيجد الاستعمار الروماني في مكاسبه التي حققها مبررات لا تقهر لنقل مطامعه باطراد إلى آفاق أبعد، بحيث لا يكون له حدود سوى حدود الأرض المعمورة، وهكذا قضى الرومان على جميع الإمبراطوريات التي واجهتهم (أندرية و أوبوايه، ١٩٨٦، صفحة ١٠٩)، فهل أفلحوا بذلك مع الفرس؟

لقد كان أول صدام عسكري للرومان مع الفرس في عهد **مارك كراسوس** M. Crassus، فمن مخرجات مؤتمر لوكا Luca سنة ٥٥ ق.م، تشكيل حكومة ثلاثية Triumvirate، كانت فيها ولاية سوريا من نصيب كراسوس الذي وصل إليها في مطلع سنة ٥٤ ق.م، كان تولي أمور سوريا يعني تولي الملف الفارسي، وربما كان كراسوس يطمع في أن يستغل الخلاف الحاصل في البيت الفارسي المالك، فقدم الدعم للأمير ميتريديس Mithridates المطالب بالعرش ضد أخيه، لكن هذا الأمير سرعان ما وقع في أسر قوات الملك التي كانت بقيادة الجنرال الفارسي الموهوب سورنا Surena، بعد أن حاصره في مدينة سلوقية على دجلة. فما كان من كراسوس إلا أنّ عبر نهر الفرات عند زوجما Zeugma (شمال جرابلس)، وبعد أن سيطر على الرُها، وعلى شمال بلاد الرافدين، اكتفى بتخريب عدد من التحصينات العسكرية الفرثية على الحدود، ونشر بدلًا منها حاميات رومانية، ثم تراجع إلى سوريا لقضاء فصل الشتاء في أنطاكيا (Babnis، ٢٠١٨، صفحة ١٠).

إذًا بدل كراسوس خططه السياسية بخطط عسكرية، إلا أنه لم يكن يمتلك استراتيجية حقيقية لمواجهة الفرس، فخلال السنة التي أقامها في سوريا انشغل بتدقيق حسابات الضرائب والإتاوات المفروضة على المدن السورية، وقام بتدقيق محتويات معبد هيرابوليس، وأصدر الأوامر إلى بعض المدن والممالك السورية التي استنكف أبنائها عن الالتحاق بجيشه، بدفع مبالغ مالية كبيرة كبدل نقدي.

هذا ناهيك أنه لم يقم بأي جهد لإعادة تنظيم الجيش وتهيئهم للحملة القادمة، فأضعف ذلك مكانته وأفقده هيبته. ولم يكن الرومان خبراء بأرض المنطقة، فهم يجهلون تضاريسها وطقسها، وكان الأجدر بهم أن يستأنسوا بآراء حلفائهم من أبناء المنطقة، وبالفعل قدم ملك أرمينيا أرطافاسط الثاني Artavasdes II (٥٦- ٣٤ ق.م) لكراسوس النصح عندما زاره في المدينة، أي وهو لا يزال في سوريا، عارضًا عليه أنْ يجعل أرمينيا بلدًا صديقًا لروما وحليفا لها في حربها على الفرس، وأعلن عن استعداده لتقديم ستة آلاف فارس (اللهيبي، ٢٠١٥، صفحة ٩٨).

إذا نظرنا إلى طرفي المواجهة قبل الحرب، سنجد أنَّ **الفرس** قد اكتسب خبرة كافية لمواجهة الجيوش المكونة على النمط المقدوني طوال القرن الأول قبل الميلاد، ولمّا كان الجيش الروماني يعتمد هذا المبدأ في تشكيل فيالقه، توقع الفرس أن يكون النصر حليفهم على جيش مسلح بالحراب القصيرة.

كذلك **الرومان** كان عندهم أيضا خبرة في مواجهة الجيوش التي تعتمد على سلاح الفرسان بصورة أساسية؛ إذ استطاعوا أنْ يتغلبوا على دول لديها أعداد غفيرة من الفرسان المزودين بالأقواس لرمي النبال، كما هو حال الأرمن، والسلوقيين، وفرسان مثراداتيس السادس ملك البونت، وبالتالي توقعوا أن يتغلبوا على الفرس، الذي كان جيشهم يعتمد على سلاح الفرسان. إنَّ المشكلة الأساسية عند الرومان أنَّهم لم يفهوا أسلوب الفرس في القتال، أسلوب الحرب الخاطفة، وهنا كان مقتلهم (Syvänne، ٢٠١٧).

كان الرومان هم مَن أعلن الحرب، وبالتالي كان لا بد لهم من خطة عسكرية يقاتلون الفرس على أساسها، لكن لم يكن عند كراسوس تصور أو استراتيجية عسكرية بالمعنى الحقيقي للكلمة، لا بل إنه رفض الخطط التي قُدمت له؛ إذ عرض عليه ملك أرمينيا أرطافاسط الثاني Artavasdes II (٥٦- ٣٤ ق.م) أثناء زيارته إلى سوريا، أن يجعل من مملكته قاعدة قوات رومانية، ونقطة انطلاق باتجاه بلاد فارس، وتطوع

بتقديم ستة آلاف فارس للجيش الروماني للقتال معهم في الحملة ضد بلاد فارس، لم يدرك كراسوس قيمة هذا العرض، وأعتقد أنه بوسعه أن يهاجم الفرس رأسا، دون الحاجة للمناورة والالتفاف، كما أنه رفض الخطة التي قدمها له الجنرال كاسيوس- قائد القوات الروماني في سوريا- الذي أكد على ضرورة الالتزام بالسير بمحاذاة مجرى نهر الفرات، حتى يطمئن على خطوط إمداد الجيش وتموينه، ومنعا لحركة التفاف قد يقوم بها خيالة العدو في البادية.

لقد فضل كراسوس التقدم للإمام بناء على معلومات مغلوطة، استطاع الفرس أن يمرروها له، فقوات الاستطلاع الرومانية لم تشاهد أي حشود عسكرية فارسية، بل وجدت أرض خالية لا يحرسها أحد، وتلمس الجنود الرومان آثار حوافر الخيول الفارسية التي كانت موجودة، ما أوحى لهم بأنهم هربوا من أمام زحف الجيش الروماني قبل أن يشتبكوا به (اللهيبي، ٢٠١٥، الصفحات ٠٩-١٠١). وهكذا انطلت الحيلة على جنرال روماني لا معرفة له بالنظم العسكرية الفارسية، ولا بأساليب قتالهم في الميدان، ولا بطبيعة الأرض الجرداء، حيث لم يقدر قوتهم أو صعوبات الحرب في الميدان المفتوح والأرض المقفرة تقديرًا صحيحًا (عبد اللطيف، ١٩٨٨، صفحة ٢١٥).

تقدم كراسوس بجيشه متبعا طريق البادية، والذي ما لبث أن تحول إلى طريق موحشة، في الوقت الذي أنهك فيه طول الطريق وحرارة الشمس الجيش الروماني، وصلت الأنباء إلى كراسوس من ملك أرمينيا باعتذاره عن إرسال النجدات له، وتبليغه بمهاجمة الفرس لمملكته. وطلب منه التوجه إلى أرمينيا لتوحيد جهودهم ضد الفرس. فانزعج كراسوس من الخبر، وعدّ ذلك خيانة شخصية له، ووعد بمعاقبة ملك أرمينيا، وواصل تقدمه عبر الجزيرة الفراتية إلى أن وصل إلى حران (عبد اللطيف، ١٩٨٨) في شهر حزيران سنة ٥٣ ق.م.

وصل كراسوس إلى كراهاي Carrhae (حران Harran) واشتبك بالقوات الفارسية هناك، ومُني الرومان بخسائر فادحة، فرّ على أثرها الجيش الروماني، وغدر

الفرس ببقية الجيش، وتمكنوا من قتل كراسوس وابنه، وتمكنوا من تدمير سبع فيالق رومانية، ومنذ ذلك الوقت أصبحت هذه المعركة رمزًا لقوة جار روما الشرقي.

لقد كان من أبرز نتائج معركة كراهاي أن الفرس هاجموا أرمينيا وجعلوا ملكها يؤدي يمين الولاء لهم، وهكذا خسرت روما حليفها في أقصى الشرق، ونقطة متقدمة في مواجهة الفرس (Babnis، ٢٠١٨، الصفحات ١٠-١١)، ورغم أنَّ معركة كراهاي كانت مِن الهزائم الكبرى التي مُني بها الرومان على الصعيدين السياسي والعسكري، حتى أن شيشرون Cicero عدّ الهزيمة حدثًا مخزيًا وضربة موجعة للسمعة الرومانية، إلا أنّ روما كانت عاجزة عن اتخاذ تدابير فورية لمعالجة الكارثة، لا بل إنّ مقتل كراسوس أخل بميزان القوى السياسية في روما، والمتمثلة بالحكومة الثلاثية، (كراسوس، بومبي، قيصر)؛ ممّا فتح الباب لاندلاع الصراع بين طرفي الحكومة الثلاثية الباقين وهما: بومبي وقيصر، وسيؤجج هذا الصراع الجديد في روما الثأر لمعركة كراهاي، حتى إشعار آخر.

وحتى يحفظ الرومان ماء وجههم ويبرروا تقاعسهم أمام مواطنيهم في محاسبة الفرس، تعللوا بأن حملة كراسوس ما هي إلا مغامرة شخصية لرجل مغرور وجشع، وأنها لم تكن حربًا عادلة، وبالتالي لم يروا في إخفاقه خطرًا مباشرًا يهدد وجودهم في شرق المتوسط، والظاهر أنّ الرومان أردوا أنْ يجعلوا مِن كراسوس كبش فداء لهزيمتهم الثقيلة في كراهاي.

وبغض النظر عن مدى الجانب الشخصي في حملة كراسوس، إلا أنّ كراسوس لم يكن بوسعه أنْ يتصرف في حرب خارجية دون الرجوع لمجلس الشيوخ الروماني والحصول على موافقته، وموافقة شريكيه في الحكومة الثلاثية (Madejski, P., The Death of M. Licinius Crassus: Between Mors Aurata and Euripides’ Bacchae، 2020).

وعندما امتنعت روما عن إرسال الإمدادات العسكرية إلى الشرق فورا بعد الكارثة العسكرية التي منيت بها في شمال سوريا، أصيبت هيبتها بضربة قاسمة، وهذا ما جعل الولايات الرومانية في شرق المتوسط تحت خطر الفرس طوال القرون الثلاثة الآتية (عبد اللطيف، ١٩٨٨، صفحة ٢١٦). وفي المقابل لم يهاجم الفرس الولايات الشرقية من الإمبراطورية الرومانية مباشرة بعد نصرهم في كراهاي، باستثناء هجماتهم المتقطعة على سوريا وآسيا الصغرى خلال سنتي ٥١- ٥٠ ق.م، والتي كان يأمل منها الفرس انتزاع سوريا من يد الرومان، وتحريض الأمراء السوريين على التمرد والثورة ضد روما، لاسيما تدمر، والبتراء، وكوماجيني، وفلسطين، لكن تمكن الجنرالان كاسيوس Cassius وبيبولوس Bibulus اللذان أوكلت إليهما مهمة إدارة سوريا، في ذلك الوقت، مِن إحباط هجمات الفرس (Babnis، ٢٠١٨، صفحة ٢٢٦).

المطلب الثالث: استراتيجية روما السياسية في عهد يوليوس قيصر

أثناء الصدام الذي وقع بين بومبي ويوليوس قيصر Julius Caesar، تعرضت ولاية سوريا الرومانية لكثير من الجور والإرهاق؛ لرفدها جيوش بومبي بالجنود والمواد التموينية، وقد أدرك قيصر ما أصاب سوريا أثناء مروره بها سنة ٤٧ ق.م بسبب هذه الحرب، وأراد أن يخفف عنها فخفض الضرائب، ونقل حق جبايتها من أيدي الملتزمين الرومان إلى الحكام المحليين، وعمل على النظر في مطالب السوريين ووزع الهبات والامتيازات على المدن التي ناصرته كاللاذقية وجبلة وبيروت، وقد حصلت أنطاكيا على حصة الأسد، بينما حرم صور التي كانت مقراً لتجمع أنصار بومبي، واعترف بالأنباط الذين أعلنوا ولائهم له، وأبقى مدينتي الرستن وحمص بيد أمرائها، وكذلك فعل مع عنجر (خلقيسChalcis) وبعلبك إذْ تركها بيد حكامها الأيطوريين العرب. وعين سكستوس قيصر Sextus Iulius Caesar (٤٧- ٤٦ ق.م) واليًا على سوريا، قبل أنْ يعود إلى روما، وكان أحد أقرباءه (السليمان ع.، العدد ٦٧١/ ٢٠١٩، صفحة ١٧٠).

وقبل مُضِي سنة واحدة على ولايته تعرض سكستوس للاغتيال على يد ثلة من الجنود بقيادة كاسيليوس Caecilius، أحد جنرالات جيش بومبي، إن انقلاب القوات الرومانية في سنة ٤٦ ق.م على قيصر، وإعلان بعض المدن السورية كمدينة أفاميا Apamea تأييدها لهذا الانقلاب العسكري، أوقع قيصر في مشكلة خطيرة، وصار الأمر أولويةً تحتاج إلى حل، لم يتمكن قيصر من القضاء على هذا التمرد إلا بإرسال ثلاث فيالق عسكرية رومانية إلى سوريا بقيادة الجنرال الروماني ستايوس ماركوس Staius Murcus (Wijlick و Hendrikus، ٢٠١٣، صفحة ٨٧).

أمّا على صعيد الوضع الداخلي فلم تكن سياسة قيصر الإدارية في سوريا تختلف عن سياسة الدولة الرومانية الإدارية في سوريا، التي كانت تعتمد فيها على الزعامات المحلية بوصفهم أصدقاءً لروما، مع وجود والٍ روماني مهمته الإشراف على سير الأمور (السليمان ع.، العدد ٦٧١/ ٢٠١٩، صفحة ١٧٠).

المطلب الرابع: استراتيجية روما العسكرية في مواجهة الفرس (٤٤ – ٣١ ق.م)

لقد بدأت محاولات الرومان الجدية للسيطرة على الحدود الشرقية في عهد يوليوس قيصر، الذي كان يخطط لشن حملة عسكرية ضد الفرس، بجيش مكون من ستة عشر فيلقًا عسكريًا، وتأسيس قاعدة رومانية دائمة على الحدود الشرقية معهم، وأن يصبح ذا تأثير ونفوذ في بلادهم. مدفوعا باستراتيجية الاستعمار الروماني، والوصول لواردات الصين والهند (Tiryaki، 2016).

وقد شاعت في الأوساط الشعبية الرومانية أحاديث وتُنبِئَت -مصدرها أنصار قيصر الذي كان يسعى أن يتوج ملكا- أن الفرس لن يهزموا إلا على يد ملك، وأن كراسوس هُزم أمامهم لأنه لم يكن ملك، وهكذا أصبحت الجبهة الفارسية محط أنظار الرومان من جديد، حيث أراد قيصر أن يستغل حملته على بلاد فارس في سبيل توطيد

أركان حكمه في روما، لكن اغتيال قيصر سنة ٤٤ ق.م وضع حدًا لجميع تلك الأحلام (Madejski، 2020).

لقد كان خبر اغتيال قيصر في روما، خبرًا مفرحًا للفرس، الذين تنفسوا الصعداء بتلاشي شبح الحملة الرومانية عليهم، والتي كان ينوي قيصر بعثها. ويمكننا القول إن مركز الثقل المؤثر في العالم الروماني قد انتقل إلى شرق المتوسط، منذ أن اتخذه قيصر قاعدة له، وورود هروب قتلة قيصر إليه ليؤكد على الوضع الجديد، حيث وضع كاسيوس Cassius يده على سوريا، بينما سيطر بروتوس Brutus على مقدونيا وآسيا الصغرى واليونان، وهكذا انصبت سياسة روما الخارجية نحو الشرق من جديد (Wijlick و Hendrikus، ٢٠١٣، الصفحات ١٦-١٧).

لقد أراد الفرس أنْ ينهجوا مع الرومان السياسة نفسها التي انتهجها الرومان معهم؛ وهي التدخل في قضايا النزعات الداخلية، فعندما وصل كاسيوس إلى الشرق متجاهلا الولاية التي خصصها مجلس الشيوخ الروماني له، وهي ولاية Cyrenaica، مفضلا الاتجاه إلى سوريا ذات الموقع الاستراتيجي، والتي وصلها في آذار ٤٣ ق.م، لقد فضل كاسيوس سوريا لأنه كان قائدًا للقوات الرومانية فيها في عهد كراسوس.

لقد كان على كاسيوس أن يبدأ بقتال واليها دولابيلا Dolabella، وسرعان ما ضمن دعم قادة الجيش له، وتمكن من حصار دولابيلا في اللاذقية فانتحر دولابيلا، دون أن تنفعه المساعدات التي قدمتها كليوبترا له، كونه كان من أنصار قيصر، فأقر مجلس الشيوخ هذه الولاية لكاسيوس. إنّ ما يهمنا هنا هو أنّ كاسيوس اتصل بالفرس فور وصوله إلى سوريا، ودعم قواته بمقاتلين منهم، ويبدو أن هؤلاء الفرسان الذين حاربوا معه كانوا من رماة السهام.

ويعتقد المؤرخون أنّ الفرس اختاروا كاسيوس للوقوف إلى جانبه في حُمّى الحرب الأهلية في روما؛ لما يتمتع به مِن سمعة عسكرية عندهم؛ إذْ كان مسؤولًا عن نجاح

تراجع القوات الرومانية مِن أرض معركة كراهاي، بعد الخسارة القاسية التي مني بها كراسوس، ويبدو أنَّ هذا التعليل سطحي؛ فإذا قرأنا عن إشارات ضمنية لمطالب فارسية بنقل السيادة على الأراضي السورية من السيطرة الرومانية إلى الفارسية مقابل الحصول على الدعم من الفرس، هذه الإشارات الضمنية بناها المؤرخون على سوابق قام بها الفرس عندما رفضوا تقديم الدعم لبومبي خلال صراعه مع قيصر؛ لأنّه رفض الاعتراف لهم بالسيادة على سوريا، وبالتالي يعتقد المؤرخون أن الشرط ذاته اشترطه الفرس على كاسيوس. أو ربما أنّ طموحات الفرس كانت محصورة في مشاهدة فرسانهم في غرب الفرات، في الولاية الرومانية الوحيدة التي تفصلهم عن مياه البحر المتوسط، على أمل أنْ يكون لهم نفوذ أكبر فيه في المستقبل (Wijlick & Hendrikus, 2013, pp. 73-75).

عندما تأزم الوضع في الشرق بين قتلة قيصر (كاسيوس وبروتوس)، وبين أنصاره (أنطونيوس وأوكتافيوس) في الطرف الآخر، بعث كاسيوس من موقعه في سوريا كونتوس لابينوس Q. Labienus (الذي كان قائدًا للفرسان في الجيش الروماني سابقًا) محملًا بالهدايا إلى ملك الفرس أورد الثّاني Orodes II يطلب المساعدة العسكرية والمزيد مِن القوات الفارسية، غير مدرك أنّ هذا الفعل سيعود بعواقب وخيمة على منطقة شرق المتوسط؛ فالمبعوث الروماني لم يرجع إلى كاسيوس وبروتوس بالمساعدات العسكرية، بل بقي في بلاد الفرس معلنا ولائه لهم والدخول في خدمتهم.

لقد خذل الفرس كاسيوس بسحب فرسانهم منذ أنْ سرت أخبار حملة أوكتافيوس وأنطونيوس إلى الشرق في مطلع سنة ٤٢ ق.م، أي أن فرسانهم لم يشهدوا معركة فيليبي Philippi في هذه السنة (Wijlick & Hendrikus, 2013, pp. 75-76). إن هذا الخذلان لا يبرره إلّا أمر واحد، وهو مطلب الفرس بالحصول على سوريا، هذا المطلب الذي كان من المستحيل أنْ يلبيه أي رجل روماني، وإن كان الفرس اعتقدوا أنهم قد وجدوا ضالتهم في لابينوس.

لقد ظل الشرق مركز الثقل في السياسة الرومانية حتى بعد القضاء على قتلة قيصر، حيث اتخذ مارك أنطونيوس Marcus Antonius من سوريا مقرًا له، وقد أدرك أنَّ هناك توترات اجتماعية ومشاعر وطنية غير راضية عن سياسات الرومان في سوريا، لذلك عمل جاهدًا على تقديم نفسه للأمراء السوريين كملك شرقي لا كجنرال روماني، وأعطى للأمراء السوريين قدرًا كبيرًا مِنَ الحكم الذاتي مقابل دفع الضرائب، وهكذا كان هؤلاء الأمراء تحت رعاية روما وتحت رعاية أنطونيوس، مشترطًا عليهم عدم قيامهم بأي اتصال مع الفرس، وراح يستعد لحرب يضع فيها الفرس عند حدهم (Serena, 2019, p. 183).

لقد كانت أول خطوة مدروسة في مواجهة الفرس هي ما قام بها أنطونيوس، هي أنه سعى للحصول على قاعدة رومانية متقدمة على خطوط التماس معهم، ولعله لم يجد أفضل من **تدمر**، فراح يخطط لاحتلالها، وجعلها رأس الحربة الرومانية باتجاه الفرات، وهذا ما ضايق الفرس وأزعجهم، حتى أنّ ملك الفرس اعتبر تدخل الرومان في شؤون تدمر بمثابة عدوان على الفرس (Wijlick & Hendrikus, 2013, p. 119).

وبالفعل جهز انطونيوس حملة على تدمر؛ فبينما كان عائدًا من الجبهة مع الفرس في سنة ٤١ ق.م، أعلم أهل تدمر أنه ينوي المرور بمدينتهم بغرض الاستراحة، وقد بيت نية الغدر بهم، فما كان أهل المدينة إلا أنْ أخذوا كلّ ما في مدينتهم من أموال ومتاع ثمين، واستعدوا لقتاله، ولا نعلم على وجه الدقة النتيجة التي أسفرت عنها حملته على هذه المدينة المتربعة في قلب البادية السورية، ولكن الراجح أنّ تدمر اعترفت بسيادة روما، ودخلت ضمن مناطق النفوذ الروماني منذ ذلك الحين، على أنّ النفوذ الروماني كان فيها صوريًا أكثر منه حقيقيًا، حيث أنّها لم تتخل عن استقلالها، ولم تشكل الحامية الرومانية فيها بالنسبة لأهل المدينة والقبائل العربية المحيطة بها شيئًا يذكر (العاقل، تاريخ العرب القديم العصر الجاهلي، ١٩٨٣، صفحة ١٢١).

رد الفرس على خطوة أنطونيوس بعبور نهر الفرات واحتلال سوريا، من نهر الفرات حتى العاصمة أنطاكية، واحتلال فلسطين وأجزاء من آسيا الصغرى في شتاء سنة ٤١- ٤٠ ق.م، بقيادة باكور Pacorus ابن ملكهم، يرافقه لابينوس المبعوث الروماني الذي أرسله كاسيوس فيما سبق ليطلب النجدة منهم في مواجهته مع أنطونيوس وأوكتافيوس، فقرر البقاء عند الفرس والعمل عندهم.

لقد استطاع الفُرس التغلب على ديسيديوس ساكسا L. Decidius Saxa، - المندوب الروماني في سوريا- وقتله، وتوغل العميل لابينوس غربا حتى وصل إلى إقليم كاريا وإقليم ليديا والساحل الأيوني على البحر المتوسط (Wijlick و Hendrikus، ٢٠١٣، صفحة ١١٤)، لقد تمكن لابينوس من التفاهم مع القوات الرومانية المرابطة على طول الطريق في آسيا الصغرى، وكسبها لصالح أسياده الفرس، مستغلًا خدمتها تحت قيادة كاسيوس، فعينه الفرس وكيلًا لهم على آسيا الصغرى، بينما تمكن باكور من متابعة طريقه جنوبا واحتلال المدن الساحلية السورية عدا مدينة صور (Bryce، ٢٠١٤، صفحة ٢٢٧).

لقد حقق الفرس وعميلهم لابينوس نجاحاتهم مستغلين غياب أنطونيوس عن سوريا وإهماله شؤونها، وقيام ثورة ضده في جزيرة أرواد في هذه السنة، وانشغال الرومان بخلافاتهم الداخلية التي بدأت ترتسم بين أنطونيوس وأوكتافيوس، وتعاون الأنباط معهم، إذ قدموا لهم كامل الدعم والتسهيلات لتقدم قواتهم نكاية بالرومان الذين دعموا الدولة المكابية في فلسطين (السليمان ع.، العدد ٦٧١/ ٢٠١٩، صفحة ١٧٠). ولما كان الرومان يكثرون الحديث عن نيتهم شن حملة على بلاد فارس؛ فقد جاءت الحملة الفارسية على سوريا بمثابة حملة انتقامية ووقائية في الوقت نفسه، واستغل الفرس في توقيتها الظروف المناسبة، لتكون حملة واسعة النطاق (Wijlick و Hendrikus، ٢٠١٣، صفحة ١١٩).

عندما علم أنطونيوس بتدهور الأوضاع في شرق المتوسط، وسقوط ولاية سوريا الرومانية بيد الفرس، عالج بعض مشاكله في الغرب وعقد تفاهم برنديزيوم Brundisium مع أوكتافيوس وعاد مسرعًا إلى الشرق في سنة ٣٩ ق.م، وكان قد مضى على احتلال الفرس لسوريا سنة كاملة.

وأمام هذا الواقع الجديد كلف أنطونيوس قائد جيشه بوبليوس فنتيديوس باسوس Publius Ventidius Bassus بالتصدي لهم، وبالفعل نجح القائد في مهمته، واستطاع أنْ يحقق ضدهم انتصارين عظيمين، في الأول طردهم مِن سوريا وآسيا الصغرى وقتل العميل لابينوس سنة ٣٩ ق.م، وعندما حاول الفرس بقيادة الأمير باكور شن هجومٍ مضادٍ على سوريا بقصد احتلالها مرة ثانية، تصدى له الجنرال باسوس وقتله في معركة جبل جنديرس Gindarus- الموضع المشهور في شمال سوريا- قطع الرومان رأس باكور وطافوا به على المدن اليونانية، إشارة إلى الثأر لحادثة قطع رأس كراسوس على يد الفرس، ممّا جعل يوم ٢٧ تشرين الثاني ٣٨ ق.م عيدًا وطنيًا عند الرومان بمناسبة الانتصار على الفرس وتحرير سوريا من قبضتهم (Madejski، ٢٠٢٠، صفحة ٤٨).

ورغم تخلّص سوريا من الاحتلال الفارسي الذي انكفأت قواته إلى ما وراء الفرات، إلا أنّ باسوس فشل في القضاء على حاكم سوريا الكوماجينية بتهمة ميوله للفرس، لاسيما أنه آوى الكثير من فلول الجيش الفارسي في أعقاب معركة جنديرس في عاصمته ساموساتا Samosata. لكن باسوس نجح في أجبار الأنباط على دفع تعويضات مالية كبيرة؛ عقوبة على موقفهم أثناء تقدم القوات الفارسية (السليمان ع.، العدد ٦٧١/ ٢٠١٩، صفحة ١٧١).

لقد أدرك أنطونيوس أنَّ الفرس لا يأتمن جوارهم، وأن خير وسيلة للدفاع هي الهجوم؛ لذلك بادرهم بالهجوم، ولا شك أن أنطونيوس أكد للرومان أنه يريد أن يثأر لنتائج معركة كراهاي ٥٣ ق.م، وأنه يريد أنْ ينتقم منهم لاحتلالهم سوريا سنة ٤٠ ق.م. لقد أراد أنطونيوس أنْ يستفيد من الأخطاء التي وقع فيها كراسوس، فعندما بدأ زحفه عليهم في ربيع سنة ٣٦ ق.م تجنب الهجوم عليهم رأسًا، أي تجنب العبور مِن جسر سلوقية على الفرات (زجما) إلى بلاد الرافدين، وفضل أنْ يسلك الطريق الشمالي قاصدًا أرمينيا على أمل مفاجأتهم، كما أن المرتفعات الجبلية في هذا الطريق ستحمي قواته من سلاح الفرسان في الجيش الفارسي، إذ تعيق حرية حركتهم.

ومِن أرمينيا باشر أنطونيوس هجومه على المدينة فراسبا Phraaspa المحصنة (في أذربيجان اليوم)، التي كان يقيم فيها أطفال الأسرة المالكة الفارسية وزوجاتهم. إنّ اختيار هذه المدينة للبدء بالهجوم، وضّح نتائج الحملة مسبقًا، وأكد الفشل الاستراتيجي لخطط الرومان، فمنَ المستحيل أخذها دون وجود أسلحة حصار، وما أنْ حاصرها أنطونيوس حتى أجبر على التراجع عنها تحت ضغط الخيالة الفرثيين الذين طاردوه، فتقهقر بمعظم جيشه صوب أرمينيا.

وهكذا جرّ أنطونيوس على الرومان هزيمة أكبر من هزيمة كراسوس، وجلب لروما عارًا أكبر؛ إذ خسر ما يقارب العشرين ألف جندي من قواته، وساءت سمعته كثيرا نتيجة هذا الفشل الفادح. فما كان منه إلا أنْ أعلن عن رغبته في إعداد العدة مرة ثانية، بعد أنْ نسب فشله الأول لملك أرمينيا الذي اتهمه بالخيانة، فسجنه بعد أنْ القى القبض عليه غدرًا، وأخذ مملكته سنة ٣٤ ق.م (Boak، ١٩٢١، صفحة ٢٢٩). ولمّا لم يكن بوسع أنطونيوس البقاء في أرمينيا؛ اضطر إلى توقيع معاهدة صداقة ودفاع مشترك مع الملك الأرمني ضد الفرس، وفي سنة ٣٣ ق.م انسحب من أرمينيا وقصد مصر، وهناك احتفل بنجاحاته المزعومة على الفرس، خلالها استعاد الفرس سيطرتهم على أرمينيا، وحصنوا مواقعهم في المنطقة (Babnis، ٢٠١٨، صفحة ١٢).

ولمّا كانت الإمبراطورية الرومانية مقسمة ما بين أنطونيوس في الولايات الشرقية، وأوكتافيوس في الولايات الغربية، والعلاقات بينهم متوترة، وتنذر بالصدام، حرص أوكتافيوس على عدم إرسال أي قوات رومانية للشرق، رغبة منه في عدم تقوية منافسه (Boak، ١٩٢١، صفحة ٢٢٩). عمومًا لم تدم زعامة أنطونيوس طويلًا، إذ اشتعلت حرب أهلية بينه وبين أوكتافيوس انتهت في معركة أكتيوم Actium البحرية سنة ٣١ ق.م، جعلت من أوكتافيوس الحاكم الأوحد في الدولة الرومانية (Babnis، ٢٠١٨، صفحة ١٢).

«المبحث الثاني»

السياسة الرومانية في سوريا (٣٠ ق.م – ٧٩م)

المطلب الأول: استراتيجية أغسطس السياسية والعسكرية (٣٠ ق.م – ١٤م)

لقد انتقل أوكتافيوس من الإسكندرية إلى **سوريا**، ولم يكن راغبًا في إثارة أي بلابل سياسية فيها:

أولا: ليعطي نفسه مزيدًا من الوقت حتى تستقر الأمور له (Serena، ٢٠١٩، صفحة ١٣٢)، إذ كان يعي جيدا أن الجندي الروماني لا يعرف الولاء لحزب أو قائد، وهو يقاتل لفائدة شخص لا لصالح فكرة، لا يرى سوى القائد الذي يصطنعه بكثرة الوعود والإغراءات.

لقد انهزم ولم يعد قادرًا على الوفاء بما وعد، وانحاز الجندي الروماني في الحين إلى غيره، كذلك هو حال الولايات الرومانية والأقاليم التابعة لها، لا يتحمس السكان لأي فريق، لا يهمهم كثيرًا أي الحزبين المتقاتلين سيخرج منتصرًا، متى سقط رئيس أحد الفريقين سارعوا إلى الانضمام إلى الآخر. همهم الأول إبراء ذمتهم في عين الغالب إذ يعرفون أنه وعد جنوده بمغانم كثيرة، وأنّه لا محالة سيطلق أيديهم في المناطق التي تظل وفية لخصمه (مونتسكيو، ٢٠١١، صفحة ١٢١).

ثانيًا: هي خشية أوكتافيوس من موقع سوريا الحساس على جبهة فارس؛ فتدهور الأمن في هذه الولاية هو مدعاة لتدخل الفرس فيها، وهذا ما لا يريده أوكتافيوس؛ فهو غير مستعد لفتح باب حرب جديدة على ضفة نهر الفرات؛ لذلك عمد إلى الاعتراف بالأمراء السوريين الذين اعترف بهم أنطونيوس وثبتهم في إماراتهم، وهكذا طمأن النخب المحلية وضمن تعاونهم بما يؤمن استقرار المنطقة (Serena، ٢٠١٩، صفحة ١٣٥).

وكان أبرزهم الأمير الأيطوري زينودور Zenodor حاكم عنجر، حيث ثبته على أملاك الأيطوريين في جبال لبنان الشرقية، ووادي نهر بردى، وفي سهل حوران، وفي منطقة اللجاة (صافي، ٢٠١١، صفحة ٣٤).

انتقل أوكتافيوس إلى جزيرة **ساموس** Samos ومنها بدأ ترتيب أمور الولايات الشرقية ومعالجة أمر الخطر الفارسي الذي يهدده، ولمّا كان أوكتافيوس يريد أن يلهي الرومان عن نتائج معركة أكتيوم، وتقويض أركان الحكم الجمهوري بداعية إعلامية تشد انتباههم؛ فإنه وجد في الفرس أفضل شماعة، فتحدث عن محاسبتهم، لكن رغبته هذه لم تكن حقيقية؛ لأنّ العرش الفارسي في حينها كان مترنحًا، فقد تمكن الأمير تيريداتس Tiridates خلال هذه الفترة ٣١- ٣٠ ق.م من الاستيلاء عليه، وتمكن بعدها الملك فرهاد Phraates من العودة للسطلة بفضل دعم القبائل البدوية، فاضطر تيريداتس للهرب إلى الأراضي الرومانية، فاستقبله أوكتافيوس إلا أنه لم يقدم له الدعم المطلوب، بل فضل التعامل مع الفرس بالوسائل الدبلوماسية والتفاوض معهم (Babnis، ٢٠١٨، صفحة ١٣).

لقد فضل أوكتافيوس انتهاج الدبلوماسية على الجبهة الشرقية؛ ليس حبا بالفرس، بل لأنّ الأوضاع لم تكن مواتية؛ فعلى مستوى الجبهة الداخلية كانت الحروب الأهلية قد **أرهقت الشعب الروماني**، واستنزفت واردات الدولة، وخسرت روما فيها خيرة شبابها، لذلك أراد الجميع أن تكون معركة أكتيوم خاتمة الحروب، وكان الجميع ينتظر من أوكتافيوس أنْ يقدم لهم السّلام، ولو على حساب المبادئ الجمهورية، ولمّا كان أوكتافيوس يدرك هذه الحقيقة ويعي الحالة العامة، ويريد هو الآخر أنْ يلتقط أنفاسه، تماما كما هو الشعب الروماني، بادر إلى انتهاز الفرصة، وجعل من نفسه بطل الحرب وبطل السلام في نظر الرومان، مدعيًا إنقاذ روما من شر الحرب الأهلية (Serena، ٢٠١٩، صفحة ١٦٦).

فأعلن في ١١ كانون الثاني سنة ٢٩ ق.م -وهو لا يزال في الشرق- إغلاق أبواب معبد جانوس Janus في روما؛ إيذانًا بانتهاء الحرب، وبداية عصر جديد هو عصر السلام الروماني pax Romana (Dillon و Garland، ٢٠٢١، صفحة ٦٥٣).

لم تكن المؤسسة العسكرية الرومانية أفضل حالا من الشعب الروماني؛ لقد كان ضباط الجيش الطموحون هم المحرّض الأول على القتال فيما مضى، والدعاة لخوض مزيد من الحروب والمعارك، بهدف تحقيق المزيد من الأمجاد والشهرة، والمزيد من الثروات والغنائم، إلا أننا لم نعد نسمع صوتا لهم، ليس لأنّهم انتهوا، بل لأنّ قبضة الإمبراطور الجديدة أخرست جميع الأصوات، فلا مجد بعد اليوم إلا مجد الإمبراطور، فتحاشا ضباط الجيش المشاريع الكبرى، حدوا من مطامحهم لتظل انجازاتهم في مستوى يلفت انتباه الإمبراطور، من دون أنْ تثير في نفسه الغيرة، حرصوا ألا يظهروا أمام سيدهم بهالة تغشي البصر (مونتسكيو، ٢٠١١، صفحة ١٢٤).

كان أوكتافيوس منهمكا في السيطرة على مقاليد الحكم في روما، فدفع مجلس الشيوخ الروماني ليخلع عليه في سنة ٢٧ ق.م لقب «**أغسطس**»، ليصير الحاكم الأعلى في العالم الروماني، ومنحه السلطة البروقنصلية في عدد من الولايات الاستراتيجية؛ والتي كان من بينها سوريا ومصر في القسم الشرقي من الإمبراطورية، وبذلك يكون قد تسلم الإشراف على أغنى الولايات الرومانية وأكثرها أهمية، بما في ذلك قيادة الجيوش الموجودة فيها (محفل و الزين، ٢٠٠٥م، صفحة ٦٣).

ويبدو أنّ هذا الإجراء كأنّه إجراء إداري بحت، إلا أنّه في الواقع لم يكن كذلك، ولاسيما **بالنسبة لسوريا**؛ فموجبه أصبح الإمبراطور خلفًا وحاملًا للتقاليد الملكية التي سادت في سوريا في عصور ما قبل روما. ثانيًا: إنّ تأسيس أغسطس لمستعمرات رومانية في سوريا لم يكن في جوهره إلّا عملًا منافيًا لأسس الإصلاحات السياسية المفترض إتخاذها لإنقاذ النظام الجمهوري في روما (شيفمان، ١٩٨٧، صفحة ٥٥).

إذنْ أراد أغسطس أنْ يثبت أقدامه في سوريا، دون أنْ ينجر إلى صدام عسكري مع الفرس، فتم نشر ثلاثة فيالق رومانية في سوريا، ثم سُحب فيلق من مصر إلى سوريا؛ تحسبًا لتهديدات الفرس المستمرة، ومن أجل مراقبة الممالك المتمتعة بالحكم الذاتي فيها، التي أعلنت عن تحالفها مع الرومان، ممّا أدّى إلى رفع عدد الفيالق المرابطة في سوريا إلى أربع فيالق خلال القرن الأوّل الميلادي (D'Amato، ٢٠١٧، صفحة ٨)، رابط فيلق منها بالقرب مِن كوماجيني، والثّاني بالقرب مِنِ اللاذقية، والثّالث في وادي نهر العاصي. كما تم وضع كتائب رومانية في المناطق الحيوية والمهمة كدورا أوروبوس على ضفة نهر الفرات، وفي تدمر في قلب بادية الشام (أبو اليسر، ٢٠٠٢).

لقد كانت سورية مهمة جدًا لأغسطس؛ كونها خط المواجهة الأول مع الفرس، وتشهد تواجدًا كثيفًا للجيش الروماني فيها، هذا ناهيك أنّ القوات الرومانية التي احتلت مصر في سنة ٣٠ ق.م دخلتها عن طريق سوريا، لذلك جعل أغسطس مِن سوريا قاعدة القوات الرومانية في الشرق، يقودها آمر Legatus، ويحكم الولاية بروقنصل، كما جعل أغسطس مِن سوريا مخزونًا وترسان لصناعة السلاح وبقيت كذلك حتى القرن الثالث (الناصري، ١٩٩١، صفحة ٧٢). ومنذ سنة ٨م كانت جميع الفيالق الرومانية موكلة بحماية حدود الإمبراطورية الشرقية بموازاة مجرى نهر الفرات (الصفدي، ١٩٦٧، صفحة ٤٤).

أمام الأهمية الاستراتيجية لسوريا في الشرق عمد أغسطس للحفاظ على السياسة الرومانية التقليدية في التعامل مع سكانها، إلا أنّ ذلك لا يعني أنه كان مطمئنا للسوريين، إذ حرص على تأسيس مستوطنات رومانية على الساحل السوري، لتوطين الجنود المسرحين فيها، ولنشر الثقافة وطريقة الحياة الرومانية (الناصري، ١٩٩١، صفحة ٧٣)، ويبدو أن هذا العمل لا يقع خارج إطار السياسة العامة التي انتهجها أغسطس في إيطاليا نفسها، إذ أسس (٢٨) مستعمرة، وطّنَ فيها ثلاثمئة ألف محارب، حصلوا جميعًا على الأرض والمكافآت المالية، كما أنه وطن محاربي أنطونيوس أيضا.

فقد حصل جنود خصمه في الحرب الأهلية على الأرض أيضا، وبهذا تكون القاعدة الاجتماعية للإمبراطورية الرومانية قد زادت اتساعًا، وأكد أغسطس أنّه وزع الأرض التي صادرها مِن ملاكها الأصليين، وكان مِن شأن هذا الإجراء الفريد مِن نوعه أنْ يغير في هوية البلاد لو ظاهريًا. هذه السياسة التي جرى وصفها بخطوطها العامة وجدت تطبيقًا واقعيًا لها في سوريا بتأسيس مستعمرتي بيروت Berytus وبعلبك (هليوبولس) Heliopolis مدينة الشمس، وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّ أغسطس لم يستخدم لبناء هاتين المدينتين مناطق آهلة. فبيروت بنيت على أنقاض مدينة فينيقية هدمها تريفون إبان حروبه لانتزاع السلطة مِن بين يدي ديميتري الثاني وأنطيوخس السابع، وجرى هنا توطين محاربي الفيلق المقدوني الخامس وفيلق أغسطس الثالث.

أمّا بعلبك فتم بنائها مكان قرية تم انتزاعها مِن أملاك حكام الأيطوريين، كون هذا المكان هو الأكثر ملائمة للرومان لتأمين صلاتهم بأهم مراكز العبادات المحلية، وبالتالي تحولهم مِن غرباء إلى جزء عضوي مِن مكون المجتمع السوري (شيفمان، ١٩٨٧، صفحة ٥٥).

ولتأمين واردات لهاتين المستعمرتين منح أغسطس مدينة بيروت مقاطعة كبيرة تمتد على جبل لبنان حتى حمص في الداخل، أي أن مستعمرة بلعلبك صارت تقع في أراض مقاطعة بيروت (جونز، ١٩٨٧، صفحة ٨٥)، ثم استدعى إلى بيروت سنة ١٥ ق.م فيالق عسكرية مِنَ المحاربين الرومان القدماء وأسكنهم فيها، وأذن لها أنْ تسك نقودها باللغة اللاتينية، وصبغ المدينة بالصبغة الرومانية مِن خلال الدستور والساحة ومجلس المنطقة، ومنحها الاستقلال الذاتي، وجعل فيها مدرسة للقانون، وأعفى سكانها من ضريبتي الرأس والأرض.

ويعود سبب إنشاء أغسطس لمستعمرة بيروت؛ أنّها كانت المكان الأكثر ملائمة لتأمين اتصال روما مع شرق المتوسط، حيث كانت تمثل محور اختراق وسط سوريا،

لاسيما أنَّ أغسطس لم يكنْ مطمئنا للعرب الأيطوريين (سكان البقاع ووادي بردى)، الذين كانوا يمثلون خطرًا حقيقيًا يهدد الرومان (سارة، ٢٠٠٩، صفحة ٣٧٧).

وكان الغرض مِن بناء هذه المستعمرات الرومانية في سوريا تأسيس قاعدة اجتماعية معينة للسلطة الإمبراطورية، ومركز انطلاق للسيطرة الرومانية على البلاد، وممّا زاد مِن أهمية هذه المستعمرات أنها بنيت على تخوم بلاد الأيطورريين العرب.

وبالفعل لعبت هذه المستعمرات دورها في ترسيخ تبعية الحكام السوريين المحليين لروما؛ إذْ أفادتْ أحد النقوش التي وصلتنا مِن بعلبك، وهو مؤرخ بالقرن الأول الميلادي، أنَّ الخيوط التي كانت تربط هؤلاء الحكام بروما كثيرة ومتعددة؛ فإلى جانب منحهم حق المواطنة الرومانية، كان هناك امتياز آخر وهو منحهم لقب باترون Patronat (صاحب، أو حامي) المستعمرة.

ونجد مِن بين باترونات بعلبك الملك أغريبا ملك اليهودية. كما جرى تكريم أحد حكام حمص المدعو غاي يوليوس سوخيم بالشارات القنصلية، وكان هذا الأمير يشغل في مستعمرة بعلبك منصب دومفير duumviro- وهو أعلى منصب في مجلس المستعمرة- لقد كان الهدف مِن تعيين الملوك والأمراء المحليين باترونات في المستعمرات الرومانية تقوية مواقع المستعمرة نفسها؛ فهذا الاجراء أولًا حدد العلاقة ما بين الأمراء المحللين ووكلاء الرومان فيها، ثانيًا حماها مِن غارات القبائل العربية عليها (شيفمان، ١٩٨٧، صفحة ٥٦).

ولمّا كان سكان اللّجاة Trachonetids يفرضون الإتاوات على القوافل العابرة مِن حوران إلى دمشق، ويهددون حركة القوافل التجارية؛ ولمّا كان سكان سهل حوران أنفسهم قد ثاروا ضد روما سنة ١٢م نتيجة سياساتها التعسفية في جمع الضرائب؛ أقام أغسطس مستعمرة رومانية زراعية عسكرية في بلدة بصير Bathyra في سهل حوران شرق مدينة الصنمين، خلال الفترة ما بين ٩-٦ ق.م (دانتزر، ١٩٨٨، صفحة ٢٢٤).

ولم يكن سكان هذه المستعمرة من المحاربين الرومان، ولكنهم كانوا من اليهود، الذين هاجروا مِن الإمبراطورية الفرثية، وكانوا يبحثون عن موطن جديد، فأعطاهم أغسطس هذه القرية الكبيرة في سهل حوران، ومنحهم امتيازات كثيرة منها: الإعفاء من الضرائب، وحق ممارسة طقوسهم الدينية بحرية، والتمتع بالحكم الذاتي تحت زعماء منهم يتوارثون الرئاسة (جونز، ١٩٨٧، صفحة ١٠٥).

وإمعانا في حماية المنطقة أمنيًا؛ تم نشر حاميتين عسكريتين في جنوب دمشق؛ عسكرت إحداها بالقرب مِن بلدة المسمية Phaena، والثّانية قرب بلدة شقا؛ لحماية طريق دمشق – الكسوة – نوى؛ ولمراقبة اللجاة، التي كان الرومان يصفونها بأعشاش قطاع الطرق، فالنقش رقم (IGRIII 121) المكتشف في مدينة قنوات يصف سكان اللجاة بالمتوحشين، طبعًا مع حرص الرومان على بقاء قواتهم على أقرب مسافة ممكنة مِن دمشق (دانتزر، ١٩٨٨، صفحة ٢٢٥).

وقد عملت كتائب مِن الجيش الروماني بقيادة فاروس Varus خلال الفترة الممتدة بين ٢٠- ١٢ ق.م على محاربة أعمال اللصوصية والسلب والتعدي على قوافل التجارة في جبل حوران (صافي، ٢٠١١، صفحة ٣٥). وهكذا حددت سياسة أغسطس الاتجاهات العامة لتطور سوريا على مدى مئتي سنة تقريبًا؛ إذ أوجدت حالة مِن الاستقرار السياسي وأحلّت السلام في المنطقة، طبعًا باستثناء بعض التحركات الشعبية الداخلية المحدودة، وتوقفت الاعتداءات الخارجية (شيفمان، ١٩٨٧، صفحة ٥٧).

أما الإمارات السورية التي اعتبرت متحالفة مع الرومان، مثل تدمر والأنباط وكوماجيني، فقد نالت نصيبا وافرًا من الاستقلال؛ فرغم وجود حامية رومانية قرب مملكة **تدمر** إلّا أنّها لم تفقد حكمها الذاتي، بل ظلت تدير شؤونها بنفسها، وبقيت إدارة البلد بأيدي وجوه المدينة وزعمائها (مجلس الشيوخ) إذ سميت المدينة الحرة (النوري، ٢٠١٧، صفحة ١٤٢).

أما الرومان فكانوا يعدونها إمارة فاصلة بينهم وبين الفرس، وكانت مناطق نفوذ تدمر كبيرة، تمتد على رقعة شاسعة من البادية السورية، مِن نهر الفرات شمالًا حتى قلب البادية جنوبًا، إذ كانت تعدّ منطقة وادي حوران مِن مناطق نفوذها (Gawlikowski، ١٩٩٧، صفحة ٤٣)، وقد قام الإمبراطور فاسيسيان بإنشاء شبكة مِن الطرق الرومانية مِنْ تدمر إلى الفرات بهدف تكريس السيطرة الرومانية-التدمرية على البادية السورية، ويبدو أن قائدا عسكريا رومانيا اتخذ من تدمر مقرًا له (جونز، ١٩٨٧، الصفحات ٧٧-٧٨).

المطلب الثاني: استراتيجية أغسطس السياسية والعسكرية في مواجهة الفرس (٣٠ ق.م – ١٤م)

كانت جميع المؤشرات تؤكد أنَّ أغسطس يريد أنْ يحكم قبضته على الإمبراطورية الرومانية، غير عازم على **التورط في حرب مع الفرس** مجهولة العواقب، ومِن يتابع الأدب الروماني خلال هذه المدّة (٣٤- ٢٧ ق.م)؛ سيجد أنَّ أغسطس لمْ يكن يتعرض لقضيتهم، بل صبّ كل اهتمامه على الترويج لنفسه بين الرومان؛ كمنقذ لروما مِن خطر الحرب الأهلية، ومِن كليوبترا وعشيقها أنطونيوس، الذي تخلى عن مبادئ الجندية الرومانية بعدما أمسى أسير هوى امرأة شرقية، والأهم أنّنا نجد تلميحات في الأدب اللاتيني ولاسيما عند فرجيل خلال هذه الفترة إلى الجيران غير المؤذين (imbellem) أولئك الشرقيون كالفرس والهنود (Serena، ٢٠١٩، صفحة ١٣٧).

وإنّ ما يؤكد هذا التوجه -بعدم قتال الفرس- بما لا يدع مجالًا للشك، أنّ أوكتافيوس أهمل طلبات ملوك الهند بالنجدة؛ فبينما كان في جزيرة ساموس سنة ٢٢ ق.م وصله وفد هندي، وقد حمل السفراء رسالة خطية كتبت باللغة اليونانية، تبين أنَّ هناك ستمائة أمير هندي على الاستعداد للقتال معه ضد الفرس، الذين أوشكوا أنْ يحتلوا بلادهم، واقترح الهنود توقيع ميثاق دفاع عسكري مشترك مع الرومان، شبيه بالميثاق الذي وقعه الإسكندر معهم، وأنّهم مستعدون لتنفيذ أي مطلب شريف. لكن

أغسطس صم أذنيه وأدار ظهره للهنود، واستدار باتجاه الفرس، وبدأ معهم -خلال هذه المدّة بالذات- مفاوضات السلام (السليمان إ.، ٢٠٢٢، صفحة ١٩٥).

إن هذه التلميحات الأخيرة تبيّن أنَّ أغسطس لم يكن راغبًا في إشعال الجبهة الشرقية؛ فالحدود الإمبراطورية مع الفرس كانت مصدر قلق ومتاعب لساسة روما منذ العصر الجمهوري، وقد باءت معظم الجهود العسكرية المتكررة التي بذلها القناصل والقادة الرومان بالفشل؛ إذْ لم ينجح الرومان في ضرب الفرس غريمهم الأكبر، وإجبارهم على البقاء خلف نهر الفرات.

لذلك أراد أغسطس أنْ يبدل سياسة روما اتجاه فارس، وهذا ما يفسر سر هدوء الجبهة الفارسية ما بين (٢٩- ٢٠ ق.م)، وأنْ يتبع معها **الوسائل الدبلوماسية**؛ ليضع حدًا لتهديدها لسوريا والولايات الرومانية الشرقية، وأنْ يحرر تجارته في الشرق من قبضتهم، وأنْ يحرر الأسرى الرومان ويسترد رايات الجيش التي كانوا قد استولوا عليها، مستفيدا في ذلك مِنَ الخلاف القائم بين أفراد الأسرة الفرثية المالكة.

وهذا ما دفع ملك الفرس فرهاد الرابع Phraates IV (٣٧- ٢ ق.م) لأنْ يوقع اتفاق سلام مع أغسطس في سنة ٢٠ ق.م، خلال زيارته إلى الشرق، وهكذا تمت استعادة الرايات الرومانية السليبة، وتحرير الأسرى الرومان (محفل و الزين، ٢٠٠٥م، الصفحات ٦١-٦٢).

ويتحدث سترابون أنّ فرهاد الرابع: «**قد بلغ حماسه لنيل صداقة أغسطس حدًا دفعه أنْ يرسل له النصب التذكاري الذي أقامه الفرثيون تخليدًا لذكرى انتصارهم على الرومان، وعندما دعا فرهاد حاكم سوريا الروماني، تيتيوس عندئذ، ليتفاوض معه سلمه أبناءه الشرعيين الأربعة رهائن، ومعهم زوجتاه، تأكيدًا على حسن نواياه... وكان أبناءه الذين يعيشون في روما محاطين بالتشريفات الملكية**» (سترابون، ٢٠١٧، صفحة ١/ ٢٨).

لقد صور أغسطس توقيع اتفاقية السلام مع الفرس على أنّه نصر عظيم للرومان وانجاز مهم يستحق التخليد، ربما أن الحظ هو الذي رتب له توقيع هذه الاتفاقية، لكن الحق يقال أن أغسطس نجح في انتهاز الفرصة على أكمل وجه (Serena، ٢٠١٩، صفحة ١٣٩).

لقد كان أغسطس يدرك جيدًا أنّ غزو الفرس هو **مشروع فاشل**؛ فأخطاره دائمًا كثيرة؛ والمؤن فيه قليلة، لا فوز فيه إلّا بعد نصر ساحق، وحتّى هذا النّصر لا يضمن دائمًا النجاة. تأتي الصعوبات أولًا مِن موقع الدولتين، وثانيًا مِنْ اختلاف أساليب القتال عند الشعبين، كيف الوصول إلى أرض فارس؟ والاشتباك مع العدو؟

إنْ سلك الرومان طريق الشمال، عبر أرمينيا عند منابع دجلة والفرات، وجد جبالًا وعرة لا تخترقها الجموع الزاحفة، قبل أنْ يهلك نصف الجيش قبل أنْ يصل إلى أرض الميديين. وإذا تقدم الرومان عن طريق نصيبين توغلوا في أرض جرداء مخيفة. وإذا مال الرومان إلى البادية السورية وتقدموا صوب منطقة ما بين الرافدين، وجدوا بلدًا بضعه أجرد قاحل، وبضعه غارق تحت الماء. ولّما كانت وجهة الرافدين من الشمال إلى الجنوب، لا يمكن لمهاجم أنْ يتوغل في العراق إلا بمفارقتهما، وهذا هو عين الهلاك (مونتسكيو، ٢٠١١، صفحة ١٤٣).

كما كان هناك اختلافٌ في طبيعة الجيش وتكوينه، إذْ لم يكن الجيش الروماني كالجيش الفارسي؛ فالإمبراطورية الفارسية كانت مجتمع إقطاعي، تمتِ السيطرة عليه مِن قبل سبع عوائل، وقد زادت هذه العائلات ثروتها بالحملات العسكرية، وبالأملاك العقارية، والامتيازات التجارية. لقد كان النبلاء الفرس على قدرٍ كبيرٍ مِن القوة ما يخولهم تحدي ملكهم -الذي كانوا يسمونه ملك الملوك- بواسطة جيوشهم الخاصة، حتى أنّ الجيش الذي هزم الرومان في معركة كراهاي كان جيش سورينا الخاص.

وقد بلغ تعداده عشرة آلاف جندي، كان ملك الملوك يحلّ المشاكل البسيطة بواسطة جيشه الخاص وأقاربه وعشيرته، لكنّه كان يستنفر نبلاء الفرس وقواتهم في

حالات الخطر الداهم، وفي كثير مِنَ الأحيان كان الفرس يكملون النقص في جيوشهم من المرتزقة، وعند النفير العام يترأس ملك الملوك الجيش الفارسي؛ كونه القائد الأعلى له، أو يكلف أحد أبناءه أو أحد رؤساء الأسر السبعة بقيادته. ويبدو أنَّ الجيش الفارسي اعتمد التقاليد البدوية في التقسيمات وهي: ١٠ و ١٠٠ و ١٠٠٠ و ١٠٠٠٠، وكان يترأس كل مجموعة من هذه المجموعات قائد حسب مكانته في المجتمع الإقطاعي، وأكبر جيش للفرثيين تحدثت عنه المصادر هو الجيش الذي حشده الفرس لمواجهة أنطونيوس والذي قدر عدد أفراده بنحو خمسين ألف فارس (Syvänne، ٢٠١٧، صفحة ٢).

والأهم مِنْ كلّ ما تقدم هو **الاختلاف في أساليب القتال والعقلية العسكرية؛** فالرومان كانوا يعتمدون على سلاح المشاة بصورة أساسية وهو الأكثر التئامًا وانتظامًا وثباتًا في العالم القديم (مونتسكيو، ٢٠١١، صفحة ١٤٣). لقد كانت الحراب والسيوف القصيرة سلاح الفيالق الرومانية المفضل، ولم يكن في الفيالق الرومانية رماة سهام، وغالبًا مَا كان يسعى الرومان لتعويض هذا النقص الحساس والخطير في منظومتهم العسكرية بالاعتماد على قوات الحلفاء مِن أبناء المنطقة، لكن هذه الفيالق والقوات المساعدة التي كانت تدعمها بأعدادها القليلة، تعرضت للإبادة عند المخاطرة بمواجهة الفرس في ساحة مفتوحة (Syvänne، ٢٠١٧، صفحة ١١).

أمّا جيش الفرس فكان على العكس تمامًا، فالمشاة لا قيمة لهم، لا يعتمد عليهم إلّا في المناطق الوعرة، لكنّ فرسانهم مِنَ أعلى طراز، يقاتلون مِنْ بعد فلا تدركهم أسلحة الرومان، حتى الحربة الرومانية لا تصيبهم، عدّتهم المفضلة القوس الطويل والنبل الفتاك (مونتسكيو، ٢٠١١، صفحة ١٤٣).

وكانت الجيوش الفارسية مصحوبة بأعداد غفيرة مِنَ الخيول، وهذا مَا سمح لهم بالانتقال إلى ساحة المعركة على ظهور جيادهم، ثم أنّهم كانوا يبدلون هذه الخيول أثناء المسير وقبل المعركة وخلالها، يتحركون بسرعة منقطعة النظير حول ساحة المعركة

(Syvänne، ٢٠١٧، صفحة ٤)، وكانوا يحاصرون عدوهم أكثر ممّا ينازلونه، ولا تنفع معهم المطاردة، فالكرّ والفرّ عندهم نوع مِن أنواع القتال (مونتسكيو، ٢٠١١، صفحة ١٤٣)، فقد تمتعوا بقدرة عالية على المناورة، وكانت لديهم قدرة عالية على استدراج الخصم نحو الكمين المعد بإحكام.

وكانوا يتجنبون القتال في الليل، فإذا مَا مالت الشمس للغرب ينسحبون مِن أرض المعركة، ويبتعدون عنها مسافة آمنة بفضل جيادهم، ويقضون الليل في معسكرات مؤقتة غير محصنة، وفي صباح اليوم الثاني يكونون مستعدين للإغارة، إذا هزموا في ساحة المعركة بوسعهم أنْ ينسحبوا وبسرعة، ليكونوا قادرين على القتال في اليوم الثاني (Syvänne، ٢٠١٧، صفحة ١١).

لقد كان الجيش الروماني يعتمد في تكوينه على الفيالق العسكرية، التي تم نشرها خلال الفترة المبكرة مِنْ تاريخ دخول روما إلى الأناضول وسوريا ومصر؛ وكانت هذه الفيالق توزع حسب مقتضيات الحاجة العسكرية (أندرية و أوبوايه، ١٩٨٦، صفحة ٢٨٢)؛ إذْ تمركزت القوات الرومانية في سوريا والأناضول حول المدن أو فيها، مع انتشار حاميات عسكرية صغيرة على طول ضفّة نهر الفرات، على عكس ممّا حدث في مصر، حيث تمركزتِ الفيالق الرومانية على أطراف الولاية (D'Amato، ٢٠١٧، صفحة ١٠).

وإذا ما رأت الإدارة تخفيض قواتها في ولاية رومانية ما، أو نقل الحاميات المرابطة فيها، أجرت هذا التدبير بتمهل عظيم وتحفّظ كبير؛ فكثيرًا ما يكون الاستقرار الأمني في البلاد صوريًا، وهذه الفيالق لم تكن جيشًا وطنيًا، وإنّما جيوش احتلال عليها أنْ تفرض سلطة الدولة في كامل الولاية، وأنْ ترد عنها عوادي الطامعين مِن الغزاة، وتصون أمنها؛ ولمّا كان عدد الفرق قليلًا بالنسبة إلى مساحة الولايات الرومانية؛ ولمّا لم يكن هناك جيش احتياط؛ لذا كان مِنَ العسير على الجيش الروماني أنْ يتحول إلى جيش مناور، متحرك، محارب، إلّا إذا اسْتنفر وحدات إضافية مِن فيالق أخرى قريبة أو

بعيدة، أو بدعوة المحاربين القدماء للالتحاق بالجيش، إلا أنَّ مثل هذه الدعوة لا توجه إلّا في أيام المحن الخطيرة.

وكانت الإمبراطورية بالنسبة للوضع الذي يكتنف جيشها، وطريقة توزيعه في البلاد، لا تستطيع الصمود على جبهة معينة إلّا بإضعاف حامياتها المرابطة في جبهة ثانية، ولذا كان عليها أنْ تلزم خطة دفاعية بحتة (أندرية و أوبوايه، ١٩٨٦، صفحة ٢٨٢). إنَّ قوة الجيش الفارسي العالية على المناورة وطبيعة تكوينه مِنَ الإقطاعيين، واعتماده على الفرسان ورماة السهام، جعل استجابته وحركته عالية جدًا، وعلى عكس القوات الرومانية، التي ليس بوسعها أنْ تترك الأماكن التي خصصتها لها القيادة العليا للجيش (Syvänne، ٢٠١٧، صفحة ١٢).

كما إنَّ طبيعة تكوين الجيش الفارسي؛ كانت تدفعه إلى نبذ أسلوب الحصار، لا يحاصر ولا يحاصر، فكلّما اقترب العدو مِن ديارهم أجلوا السكان، وتركوا ثلّة مِن الجنود في القلاع لحمايتها، بحيث مَن يستولي على تلك المواقع يضطر إلى تخريبها، ثم إنَّ لهم مهارة في إحراق الأراض خلف الغزاة فيحرمونهم حتى مِن العشب (مونتسكيو، ٢٠١١، صفحة ١٤٣).ويتجنبون القتال في الشتاء؛ لأنّه يؤثر سلبًا على أقواسهم التي تقل مرونتها فيه بسبب البرد، ويكاد ينعدم علف خيولهم فيه. أمام هذه التكتيكات واعتماد أسلوب الحرب الخطافة، لم يكن بوسع الكتيبة الرومانية المتراصة مِن المشاة أنْ تنجز كثيرًا (Syvänne، ٢٠١٧، صفحة ٤).

زد على ذلك أن الكتائب الرومانية القادمة من إيليريا وجرمانيا لا تفيد في تلك البقاع، إذْ يحافظ الجنود على عاداتهم في الإكثار مِنَ الأكل حتى التخمة؛ فيهلكون كلهم تقريبًا. وهكذا لمْ تسطع أمة الافلات مِن ربق الرومان، إلّا الفرس، ليس لأنّهم لم يهزموا بل لأنهم لم يدركوا (مونتسكيو، ٢٠١١، صفحة ١٤٣).

لم يكن ترتيب الأمور مِن قبل أغسطس بشكلٍ ودي على الجبهة الفارسية يُعد في نظر الكثيرين انجازًا رائعًا، حتى **أغسطس نفسه لم يكن راضيًا عنه**، لكنه قبل به مرغمًا؛

لأنّه كان ضامنًا للحدود الشرقية، بعد أنْ أدرك الفرس قوة جارهم الروماني، وضامنًا لولاء الأمراء السوريين المتمتعين بالحكم الذاتي، مع تبعيه اسمية للدولة الرومانية (Serena، ٢٠١٩، صفحة ١٣٦).

وممّا يؤكد لنا ذلك سياسة أغسطس نفسه؛ فبعد أنْ قبل بالفرات حدًا مع الفرس، راح يسعى جاهدًا للالتفاف عليهم عن طريق حملته الشهيرة سنة ٢٤ ق.م على اليمن، والتي عرفها الرومان باسم **بلاد العرب السعيدة** Arabia Felix، بقوة تقدر بعشرة آلاف مقاتل، جمعهم الحاميات الرومانية في مصر، بقيادة أَيْلِيُوس جَالُّوس Aelius Gallus (٢٦- ٢٤ ق.م)، الذي كان واليًا على مصر (الجرو، ١٩٩٦، صفحة ١٩٦).

ولكي نشرح الفكرة بأسلوب أعمق يمكننا القول انّه: كان أغسطس يتشبه بالإسكندر كثيرا، حتى أنّه زار قبره في الإسكندرية أكثر مِن مرة خلال السنوات (٣٠- ٢٤ ق.م)،كما كان يضع خاتمًا في إصبعه طبعت عليه صورة الإسكندر المقدوني (Serena، ٢٠١٩، صفحة ١٧٣).

ولما كان الأدب يعكس سياسة الدولة التي يحكمها فهو نظام شمولي بصورة واضحة - فغالبًا ما يكون موجهًا فيها بمَا يخدم مصالح هذا النظام- فإنّ المؤرخين يستشعرون نوايا أغسطس فيما نظمه فرجيل Vergil مِن أشعار؛ إذْ كان مقربًا جدًا منه، وفرجيل هذا يقول: «إن قدرنا أنْ نتوسع بلا حدود imperio sine fine»، أي أنّه كان ينطق بما يدور في خَلَد أغسطس، ويعبر عن سياسة الدولة الرومانية (عمران، ٢٠١٠، الصفحات ١٣-١٤).

وأمام الحاجز الذي واجه تمدد أغسطس باتجاه الشرق، وبدأ بالبحث عن بديل، فرأى أنْ يهادن الفرس ويلتف عليهم؛ إذ كان هناك ميزات اقتصادية واستراتيجية واضحة لطريقين بعيدين عن قبضة الفرس يمكن تطويرهما، الطريق الأول كان يمر في الأراضي الشمالية منَ الصين عبر السهوب الأوراسية باتجاه البحر الأسود وآسيا الصغرى، بينما كان الطريق الثّاني يمر في البحار الجنوبية عبر المحيط الهندي؛ وهذه

الطرق تؤدي إمّا إلى الخليج العربي والأراضي العربية، أو إلى البحر الأحمر فمصر، أو عبر الطرق البري للقوافل العربية مِن اليمن إلى سوريا. وهكذا انصب اهتمام الرومان على أنْ يتخطوا مركز الهيمنة الفارسية(Lewis، ١٩٩٦).

ويبدو أنْ الرومان فضلوا **الطريق الجنوبي** لعدة معطيات، أولها أنَّ أغسطس أراد أنْ يسبق الفرس إلى اليمن، لكي يحمي أمن مصر والبحر الأحمر، ويحافظ على صلات روما التجارية مع الهند والصين بما يخدم مصالحها، ثم إنّ الوصول إلى اليمن كان سيؤمن المحاصيل الاستراتيجية (التوابل والعطور) التي يتوق الرومان إليها، هذا طبعًا بالإضافة للأسباب الاستراتيجية المتمثلة في السيطرة على بلاد العرب وبحرهم، والتخلص مِن سيطرة الفرس على طريق تجارة الحرير، فأغسطس كان يرمي مِنِ احتلال اليمن إلى تمتين أواصر الترابط بين الولايات الرومانية الشرقية مِن جهة، وتحقيق نصر عسكري على الفرس أعداء الإمبراطورية الرومانية التقليديين؛ بالالتفاف عليهم مِن جهة الجنوب من جهة أخرى (الجرو، ١٩٩٦، صفحة ١٩٦).

وبغض النظر عن نتائج الحملة العسكرية الفاشلة، إلا أنها تشرح بوضوح أنّ شعار السلام الروماني الذي طالما روّج له أنصار أغسطس، لم يكن إلّا شعارًا أجوفًا، أراد منه الإمبراطور الجديد استراحة المقاتل، وخداع الأنصار والخصوم على السواء.

وإنّ ما يؤكد ذلك هو أنّه رغم السلام المعلن مع الفرس إلا أنّ الشرق بقي محور السياسة الرومانية، ففي سنة ٢ ق.م حدث حادث غريب؛ وهو القيام بمهرجان عسكري في معبد الإله مارس Mars إله الحرب عند الرومان، عرضت فيه إشارات صريحة للفرس، وتلميحات للانتصارات الرومانية في الشرق، واستعراض للرايات التي استردها اغسطس مِنَ الفرس، أي شحذ الهمة للأخذ بالثأر (Serena، ٢٠١٩، صفحة ١٦٩).

وفي السنة التي تلتها وقع اختيار أغسطس على جايوس قيصر Caius Caesar حفيده مِن ابنته جوليا وابنه بالتبني، لرئاسة بعثة خاصة لتنظيم علاقات روما مع

الشرق، واستمرت البعثة في عملها خمس سنوات (١ ق.م – ٤م)، ويؤكد المؤرخون أنَّ هذه الخطوة لم تكن عبثية، بل مدروسة وبعمق؛ وما يؤكد ذلك أن أغسطس كلف أحد ملوك المغرب العربي وهو جوبا الثانيJuba II بتأليف كتاب عن المشرق، حتى يستعين به جايوس قيصر أثناء وجوده في سوريا، وحتى تتدارك من خلاله السلطات الرومانية الإخفاقات التي منيت بها في حملة إيليوس جالوس سنة ٢٤ ق.م على اليمن (السليمان إ.، ٢٠٢٢، صفحة ١٩٥).

في طريق جايوس إلى سوريا توقف عدة مرات، إذْ التقى بتيبيروس Tiberius في أثينا، ومنها رافقه في رحلة إلى مصر وبلاد العرب، ويبدو أنّض دراسة مشروع غزو بلاد فارس كان مِنَ الخطط الخفية لهذه الحملة، لكن الظاهر لا يوحي بذلك، فأولًا سياسة أغسطس اتجاه الفرس لم تتبدل خلال السنوات (٢٠ ق.م – ١٤م)، وثانيًا كان جايوس عديم الخبرة العسكرية، أرسله أغسطس لمنطقة الدانوب حتى يتلقى بعض التدريبات العسكرية ويكتسب مزيدًا مِنَ الخبرة السياسية، لكن إقامته هناك لم تمتد إلا لبضعة شهور، حيث كان مطلوبًا منه أنْ يغادرها إلى سوريا، وحيم وصوله إليها التقى بملك الفرس في إحدى الجزر في مجرى نهر الفرات، ووقع معه اتفاقية (Serena، ٢٠١٩، صفحة ١٧٦).

كانت فيها أرمينية التي خرجت منذ سنة ٦ ق.م مِن دائرة النفوذ الروماني، إحدى أبرز الموضوعات المطروحة على طاولة النقاش، وقد نجح جايوس في إعادة الحكومة الموالية لروما إلى العرش (الناصري، ١٩٩١، الصفحات ٨٣-٨٤). وإنْ كان بعض المؤرخين يرجح أنَّ تلك البعثة لم تكن إلا استعراضية، أجندتها داخلية لا خارجية، كان أغسطس يريد منها أنْ يذكر الرومان بانتصاراته العسكرية (Serena، ٢٠١٩، صفحة ١٧٦).

المطلب الثالث: استراتيجية الإمبراطورية الرومانية لحفظ أمن حدودها الشرقية:

لم تكن سوريا الساحة الأولى التي احتك بها الرومان بالفرس؛ بل كانت آسيا الصغرى؛ فمنذ أنْ دخل الرومان بلاد الأناضول سنة ١٢٩ ق.م، تطلعوا لجعل نهر الفرات حدًا فاصلًا لهم في الشرق، لكن ذلك لم يكن ممكنًا بسبب وجود إمارات وممالك في آسيا الصغرى مثل أرمينيا وبلاد البونت Pontus، ما زالت مستقلة ومتحالفة مع الفرس، ثم إنَّ روما كانت قد دخلت بلادًا لا تعرف حجم قوة ساكنيها، ولا جغرافية بلادهم، ورغم مَا تقدم ذكره بدأت تتبلور تلك الفكرة عند ساسة الرومان، وهكذا سيلعب نهر الفرات بشكل ثابت دورًا منظمًا في السياسية الشرقية للإمبراطورية الرومانية لسنوات (Tiryaki، ٢٠١٦، صفحة ٢١٨).

لقد كانت منجزات بومبي في شرق المتوسط رائعة، فضم سوريا كولاية للإمبراطورية الرومانية كان عملًا لا بدّ منه، كون مصالح روما في سوريا كانت تعدّ امتدادًا طبيعيًا لمصالح روما في آسيا الصغرى، والسيطرة على سوريا كانت خطوة ضرورية لجعل البحر المتوسط بحيرة رومانية، وبعد أنْ أخضعت روما سوريا، لم يكن بوسعها أنْ تتوقف هناك، فلا بدّ لها مِن حدود آمنه ومجال حيوي؛ ولمّا كان بومبي استطاع أن يفرض سيطرته على المنطقة الممتدة بين الفرات والمتوسط؛ فإنّ روما كانت قانعة في ذلك الوقت عن تلك الحدود الشرقية (Bryce، ٢٠١٤، صفحة ٢٢٥).

بعد أنْ فشلت جميع المحاولات التي قام بها الرومان في العصر الجمهوري لمدِّ مناطق السيطرة الرومانية شرق الفرات، اقتنع أغسطس بهذا النهر حدًا شرقيًا للإمبراطورية الرومانية، والرومان بطبعهم يميلون إلى الحدود الطبيعية لولاياتهم وإمبراطوريتهم، تمامًا كما قبل بنهر الدانوب حدًا شماليًا للإمبراطورية (الصفدي، ١٩٦٧، صفحة ٢/٤٣)، ومِنْ أجل حماية حدود الإمبراطورية الرومانية الشرقية، ولضمان الأمن والاستقرار والمواصلات فيها؛ عملوا على إيجاد نظام دفاعي متكامل

على تلك الحدود، ولم يواجه الرومان صعوبة كبيرة في تحصين النّهر، فأولًا استفادوا مِنَ النهر نفسه كمانع طبيعي، إذ كان مِن المتعذر على الفرس عبور الفرات الجاري بيسر وسهولة، ثمّ أنهم بنوا سلسلة منَ الحصون والقلاع والمعسكرات على التلال المشرفة عليه، مشكلة مَا عرف باسم الحدود الفراتية (صافي، ٢٠١١، صفحة ٥٣).

وهكذا عُدَّ نهر الفرات حدًا فاصلًا بين سوريا والعراق، أي بين الإمبراطوريتين، ويصف لنا سترابون الذي عاصر الإمبراطور أغسطس واقع الحدود فيقول: «**يشكل الفرات والمناطق الواقعة منه على الجانب الآخر حدود الدولة الفرثية، أمّا الأراضي الواقع على هذا الجانب منه فهي للرومان ولزعماء القبائل العربية وصولًا إلى بابل**» (سترابون، ٢٠١٧، صفحة ١/ ٢٨). يضاف إلى هذا الخطر الفارسي، خطر القبائل العربية التي يسميهم الرومان بـ «ساكني الخيام»؛ فلمّا كانت غارات البدو التي اعتادوا على شنّها على أطراف الأماكن المأهولة، مصدر تهديد دائم على الأمن والمواصلات والتجارة الدولية، وعمل الرومان على إنشاء خطوط دفاعية اخترقت البوادي العربية (فرزات، ٢٠٠٥م، صفحة ١٣٨).

لقد أدت الحدود الرومانية دورها؛ فكانت بمثابة الدرع الواقي والترس الحامي، وكانت القوات الرومانية حتى القرَن الثاني الميلادي قادرة على حماية حدود الإمبراطورية الرومانية من الأخطار الخارجية، وكان العالم الذي يخضع للسيادة الرومانية يستمتع بطمأنينة وأمن لا مثيل لهما على الإطلاق. وقد يحدث في أي ولاية رومانية تمرّد أو عصيان أو ثورة مسلحة يقوم بها سكان هذه الولاية أو تلك المقاطعة، أو منافسة بين الزعماء الذين يطمحون إلى السلطة العليا، إلّا أنّها تبقى أحداثًا محلية فردية استثنائية لا غير؛ فقد استطاع الجيش الروماني أنْ يعالجها أيضًا (أندرية و أوبوايه، ١٩٨٦، صفحة ١٨٩).

ولم ينظر الرومان إلى خط الحدود كخط مقدس لا يجوز تجاوزه؛ بل على العكس ينظرون لخط الحدود كنقطة انطلاق للقوات الرومانية لتحقيق مزيد مِنَ التوسعات وضم أراضي جديدة في الوقت المناسب (الخطيب، ٢٠٠٨، صفحة ١٦٨).

وبالنظر لأهمية سوريا الحربية، ومكانتها الاستراتيجية كخط دفاع أول في وجه الفرس؛ بنى فيها الرومان الكثير مِنَ الطرق الممتازة، التي اخترقتها في كافة الاتجاهات، والتي لا تزال بعض آثارها ظاهرة للعيان، ولمّا كان بناء الطرقات مرتبطًا ببناء الجسور، فإنّها انتشرت في سوريا، وقد تمكنت الجيوش الرومانية بواسطتها مِنْ اجتياز الأنهار والوديان، التي تعترض مسار طرقها، وبذلك استطاع الرومان في سوريا تأمين تحركاته في جميع فصول السنة (محفل و الزين، ٢٠٠٥م، صفحة ١٤٤).

وإذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ البادية في سوريا كانت خط المواجهة الأول مع الفرس عبر نهر الفرات، فإنّ الرومان عنوا بخط الدفاع الثاني المتمثل في سلسلة المدن السورية، إذْ جعلوا منها مراكز للجنود، وربطوا الساحل السوري بشبكة مِنَ الطرق الرومانية، كما ربطوا مدن الساحل مع مدن الداخل بشبكة طرق أخرى، وهكذا توفر للرومان طريق يربط ما بين الساحل ونهر الفرات، فكان طريق اللاذقية - حمص ومنها إلى تدمر، وطريق طرطوس -حمص ومنها إلى تدمر، وطريق طرابلس - حمص ومنها إلى تدمر، وإنْ كنا لا نعرف الكثير عن زمن بناء هذا الطريق، والمحطات الواقعة عليه، إلّا أنَّنا نعلم أنَّ سبتيموس سيفيروس قام بتوسيعه في نهاية القرن الثاني للميلاد، ونقل عليه جنوده إلى الجبهة الشرقية (الخطيب، ٢٠٠٨، صفحة ٩١).

أمَّا الحدود الشرقية شمال بلاد فارس، حيث مملكة **أرمينية Armenia**، التي كانت تفصل الفرس عن الرومان في آسيا الصغرى، فقد فضل الرّومان أنْ تكون منطقة نفوذ لهم، لا ولاية رومانية تابعة بصورة مباشرة، وكان أنطونيوس قد احتلّها وعزل ملكها أرطافاسط الثاني في سنة ٣٤ ق.م وأخذه معه أسيرًا إلى الإسكندرية. وعندما انسحب منها استغل الفرس الفرصة وعيّنوا ابنه أرتاخيس الثاني Artaxias II (٣٣-

٢٠ ق.م) في مكانه، والذي انتهج سياسة الولاء للفرس والعِداء للرّومان، حتى أنّه ذبح جميع الجنود الرومان في أرمينيا، وكان ملكًا قاسيًا مكروهًا في مملكته، فأرسل وجهاء الأرمن وفدًا إلى أغسطس يطالبونه فيه بإرسال تيجران Tigranes ابن أرطافاسط الثاني، والذي كان لا يزال رهينة في روما ليتسلم عرش أرمينيا.

وهكذا وجد أغسطس الفرصة سانحة لاعتماد سياسة فرض النفوذ، فأرسل تيبيروس في سنة ٢٠ ق.م لتعيين تيجران ملكًا على الأرمن بشرط الولاء للرومان، وتم بالفعل تعيينه باسم تيجران الثالث Tigranes III، بعدما وجد الرومان أنَّ أرتاخيس قد لقي حتفه، وبذلك دخلت أرمينيا في دائرة النفوذ الرومانية (Babnis، ٢٠١٨، صفحة ١٣).

لاشك أنّ هذا الكسب الذي حققه الرومان في أرمينيا جعل موقعهم أقوى في التفاوض مع الفرس؛ فقبل الفرس توقيع اتفاقية سلام مع أغسطس في سنة ٢٠ ق.م تعهد الملك الفارسي فرهاد الرابع بموجبها إطلاق سراح الأسرى الرومان وإعادة الرايات والأعلام التي استلوا عليها عندما ألحقوا الهزائم بالجيش الروماني قبل ثلاثة وثلاثين سنة في حران، وقبلوا بإطلاق سراح الأسرى الرومان خلال حملة أنطونيوس الفاشلة قبل ستة عشر سنة، كما أقر الفرس نفوذ الرومان في أرمينيا (Bryce، ٢٠١٤، صفحة ٢٣٢).

وهكذا بقيت أرمينا في دائرة النفوذ الروماني، إلى أنْ تمكنت العناصر الوطنية فيها مِنْ وضع يدها على الحكم سنة ٦ ق.م، لكنها عادت للنفوذ الروماني مرة أخرى بفضل جهود جايوس قيصر، الذي دفع جايوس حياته ثمنًا لهذا النصر، ومِنْ وقتها بقي العرش الأرمني متأرجحًا في الولاء ما بين الفرس والرومان، حتى وفاة الإمبراطور أغسطس في سنة ١٤م (الناصري، ١٩٩١، الصفحات ٨٣-٨٤).

لقد انتهج الرومان في عهد تيبيروس (١٤- ٣٧م) سياسة مختلفة في التعامل مع الفرس، فأولًا قام الرومان بضم كثير مِنً الإمارات السورية ذات الحكم الذاتي إلى

ولاية سوريا الرومانية، فقد ضمت تدمر في سنة ١٧م إلى ولاية سوريا الرومانية بعد زيارة جرمانيكوس لها، وكانت مِن قبل تابعة رسميًا لروما (Gawlikowski، ١٩٩٧، صفحة ٤٤)، وهكذا كان تيبيروس أول مَنْ اخضع تدمر للحكم الروماني، كما ألحق قواتها بالجيش الروماني، وكلفها بحراسة أطراف البادية، وتوطيد الأمن على ضفاف الفرات، وهكذا اكتسب الجيش الروماني فرقًا مِنَ الرماة التدمريين المهرة (الخطيب، ٢٠٠٨، صفحة ١١٧).

ثم بدأ الرومان يتدخلون بصورة جدية في مشاكل العرش الفارسي، فقد أصدرت السلطات الرومانية توجيهاتها إلى فيتليوس Vitellius حاكم سوريا الروماني لكي يقدم الدعم لـ (فرهاد) - أحد المطالبين بالعرش في طيسفون- وعبر الجيش الروماني نهر الفرات ثم عاد أدراجه، بعد أنْ وجد الفرصة متاحة للتفاهم مع كبار رجال الدولة الفارسية لدعم فرهاد، فهرب الملك الفارسي أردوان الثالث إلى هيركانيا.

ولَمَّا توفي فرهاد في سوريا في هذه اللحظة الحرجة بالذات، وجد الرّومان البديل فورًا، فأجلسوا تيرداد -وهو ابن أخيه- على العرش، إلّا أنَّ ملكه لم يدم أكثر مِنْ عام واحد، هرب بعده إلى سوريا ورأى أردوان الثالث بعدما ساعده نبلاء المجتمع الاقطاعي في إيران. عندها وجد أنَّه مِنَ الحكمة أنْ يطلب مِن إمبراطور الرومان عقد الصلح الذي تم في سنة ٣٧م، والذي تم بموجبه اعتراف الفرس رسميًا بخروج أرمينيا مِنْ دائرة نفوذهم؛ ولضمان تنفيذ ذلك الاتفاق أخذ الإمبراطور تيبريوس أحد أولاد أردوان الثالث رهينة إلى روما (النوري، ٢٠١٧، الصفحات ٨٨-٨٩).

على الرغم مِنْ اعتراف الفرس رسميًا بخروج أرمينيا مِنْ دائرة نفوذهم بموجب اتفاق السلام الذي وقعوه مع الرومان في سنة ٣٧م، إلا أنَّ سياستهم كانت تتبدل بتبدل ملوكهم، ويبدو أنَّ الرومان لم يحسموا هذه المعضلة إلّا في عهد الإمبراطور نيرون (٥٤- ٦٨م)؛ فبعد انتصاره في ميناء طربزون Trabzond في جنوب شرق **البحر الأسود**، أصبح هذا الميناء نقطة ارتكاز استراتيجية للرومان. وبعده أسس الفيلق

الرومان الثاني عشر Fulminata (أي الصاعقة) له قاعدة في Melitene في كبادوكيا Cappadocia، ما بين سنتي ٧٥- ٨٠م؛ استعدادًا لمواجهة أي تقدم قوات فارسية قادمة من الشرق، وهكذا تمركزت في هذه الولاية قوات رومانية بارزة في عاصمتها أماسيا Amasya.

وقد أسهم ضعف ملوك الفرس والأرمن على هذه الجبهة في انتشار القوات الرومانية في القوقاز، وعلى الساحل الشمالي للبحر الأسود. وهكذا خلال فترة الفلافيين Flavian كان هناك شبكة من الطرق البرية الرومانية التي تربط بين أعالي نهر الفرات ونهر الدانوب، سمحت للفرق الرومانية بالتنقل بيسر وسهولة (D'Amato، ٢٠١٧، الصفحات ٦-٩).

لقد كان خط الحدود الشرقية مغريًا للأباطرة الرومان في القرن الثاني للميلاد؛ فقدِ اخترقوه في أكثر مِنْ حملة، لكن لم يقصدوا ضم بلاد فارس إلى الإمبراطورية الرومانية، وجميعهم أدركوا أنَّ ذلك مستحيل، ودليل ذلك أنَّهم احتلوا طيسفون عاصمة الفرس أكثر من مرة ولم يحتفظوا بها، بحثوا عن أمير فارسي ليكون صنيعتهم، ولم تكن حملاتهم أكثر مِن «غزوة» بالتّعبير العلمي للكلمة، هدفها المجد والألقاب والتشبه بالإسكندر المقدوني؛ فمعظم الأباطرة الرومان الذين خلفوا أغسطس حلموا أنْ يسيروا على خطا القائد المقدوني العظيم، وأنْ ينالوا المجد والشهرة التي نالها ذلك الملك، فغزو بلاد فارس كان سيزيد منْ هيبتهم وسمعتهم العسكرية بين جنودهم، ويلهي رعاياهم عن مشاكل الإمبراطورية الداخلية، واصطناع ملك فارسي تابع لهم كان سيفتح لهم الطريق التجاري مِنْ روما في الغرب حتى الهند والصين في الشرق، كما كان سيخلص الرومان مِنْ عقدة خطر الفرس في شرق المتوسط، وبالتالي كان غزو بلاد فارس حلما مجيدًا يراود معظم الأباطرة الرومان (Syvänne، ٢٠١٧، صفحة ٦).

لقد كانت الإمبراطورية الرومانية بحاجة إلى أعداد غفيرة مِنَ الجنود لحماية حدودها، ولم يكنْ تشكيل الجيش الإمبراطوري مِنَ الأمور البسيطة أو مِنَ المهام

اليسيرة أصلًا؛ إذ يراعى العمل به وفقًا لمقتضيات الوضع القائم؛ فامتداد الرقعة الإمبراطورية وتباين أقوامها؛ عروقًا وأجناسًا وأجيالًا وامتدادًا وأطرافًا وقيام شعوب وقبائل مزعجة مشوشة بجوارها، كل هذا أملى حلولًا جديدة.

إنَّ ما يميز العصر الإمبراطوري عن العصر الجمهوري الذي سبقه هو أنَّ العصر الإمبراطوري عرف الجيش المحترف، جيش دائم تحت السلاح على أهبة الاستعداد للقتال، ولم يخلُ إنشاء الجيش الدائم وبقاؤه تحت السلاح مِن قيام مشكلات مختلفة معقدة. لقد ارتبطت ظروف نشأة الجيش المحترف بنشأة النظام الإمبراطوري الجديد، فلم يعد بوسع أحد فرض التجنيد الإجباري في إيطاليا مِنْ أجل القتال في الولايات النائية، فهو تدبير تعسفي طالمًا تذمّر الناس وتملّلوا منه. لهذه الأسباب مجتمعة كان لا بـدَّ مِنْ جيش محترف، تلظى أفراده بنار الانتظار الممل، وألفوا مواجهة المخاطر والطوارئ، إنّ جيشًا على هذا النحو لا يمكن أنْ يقوم إلّا على متطوعين يقبلون طوعًا واختيارًا على الخدمة العسكرية ويتدربون على فنون الحرب والقتال وشبوا على المهنة، ويتمرسون بها طويلًا مِنْ خلال مزاولة يومية وتمارين مستمرة (أندرية و أوبوايه، ١٩٨٦، صفحة ٢٧٦).

لقد كانت الفرق العسكرية الرومانية تتألف مِنَ المواطنين الرومان، ولكن المبدأ لم يكن دائمًا ملزمًا، وجرى خرقه في الحروب الأهلية التي اسقطت النظام الجمهوري في روما (محفل و الزين، ٢٠٠٥م، صفحة ٦٥)، ولمَّا كانت الدولة الرومانية في عصرها الإمبراطوري قد بلغت أقصى اتساع لها، كانت **حاجتها متزايدة للجنود**، ولمَّا كانت الأسر الثَّرية قد تمكنت مِنْ إعفاء أبنائها مِنِ الخدمة العسكرية بصورة أو أخرى، كان المجندون في الغالب مِنْ أبناء هذه الأسر الفقيرة، ومِنَ المعلوم أنَّ الأنظمة العسكرية الرومانية تحرم على المجندين الزواج، ولمَّا ترافق هذا الأمر مع سنوات خدمة إلزامية طولية، صار سببا آخر للعزوف عن الزواج، ولاسيما أنَّ المرء يساق إلى الجندية في مقتبل العمر وأكثر سنوات حياته حيوية، تلك السنوات التي يكون قادرًا فيها على العطاء

والانتاج، ممّا تسبب بمشاكل اجتماعية وسياسية في روما (ديورانت، ١٩٨٨، الصفحات ٢/ ٢٨-٢٩).

وبالتالي كان لابُدَّ مِنْ جذب عناصر للتطوع في هذا الجيش، على القدر الكافي والعدد الوافي، ولما كانت الإمبراطورية الرومانية قد انتهجت سياسة جديدة تقضي بالحفاظ على الولايات الرومانية وأمنها واقتصادها، فلم يعد مسموحًا إطلاق يد الجنود لنهبها وابتزازها، لذلك كان لابُدّ مِنْ إغراء الشبّان للتطوع في الجيش بجملة حوافز جديدة، كالمرتبات العالية والجرايات والمكافآت العينية أو النقدية التي يصار إلى توزيعها في بعض المناسبات، وتعويضات سخية تدفع عند التسريح، والترفيع إلى رتبة اجتماعية أو قضائية أعلى (أندرية و أوبوايه، ١٩٨٦، صفحة ٢٧٧).

الأهم مِنْ كل ذلك أنّ أغسطس عمِلَ على تعويض النقص الحاصل في الفرق الرومانية بسكان الولايات، الذين صاروا يحصلون على حق المواطنة الرومانية بدخولهم الفرقة، إذ يصيرون مواطنين رومان بمجرد انتهاء خدمتهم العسكرية. وهكذا أصبحت الخدمة في الجيش السلم الذي يرقى بواسطته سكان الولايات مِنْ غير الرومان للحصول على حقوق المواطنة الرومانية، أي أنَّ الجيش صار له وظيفة اجتماعية وغدا مِنْ أبرز الوسائل لنشر مظاهر الحضارة الرومانية "الرومنة" في الولايات، وسرعان ما تسربت العناصر الشرقية إلى الفرق الرومانية المرابطة في الولايات الشرقية، وغالبًا ما كانوا مِنْ سوريا، ومصر، وآسيا الصغرى (محفل و الزين، ٢٠٠٥م، صفحة ٥٦).

لقد اعتمد الرومان على سكان سوريا في الجيش، بعد تجنيدهم في الوحدات المساعدة، وتوزيعهم على الحصون التي أنشأها الرومان على طول نهر الفرات، كما قاتل الجنود السوريون في القوقاز وأرمينيا، واستفاد الرومان من خبراتهم القتالية، ومعرفتهم بأساليب الدفاع والهجوم المستخدمة في المنطقة، فاعتمدوا على سلاح الفرسان السوري شرقي الطراز، واستفادوا مِنْ خبرة الجنود السوريين في التعاطي مع الأسلحة الثقيلة، كالمنجنيقات التي تقذف الحجارة، واستفادوا مِنْ رماة السهام العرب الذي يركبون

الخيول (D'Amato، ٢٠١٧، صفحة ٨). وقد أدى الجنود السوريون الذين خدموا في الجيش الروماني خدمتهم في كافة أصقاع الإمبراطورية الرومانية، في بريطانيا وفي نوميديا، كما أنَّ أعداد كبيرة منهم أدوا خدمتهم العسكرية في القطعات العسكرية الرومانية المرابطة في ليبيا (شيفمان، ١٩٨٧، صفحة ١٩٥).

والنقوش التي كتبها المحاربون في الجيش الروماني في المقطعات الشرقية تشهد بذلك، مِن بينها النقش الذي سجله جندي في الجيش الروماني، وهو عبارة عن تكريس كتبه أحد الجنود العاملين في الفرقة السادسة عشر في فلافيا Flavia، والتي كانت متمركزة في ساموساتا في تركيا، والتكريس اليوم محفوظ في متحف كاليفورنيا. كما أنَّ هناك نصًا يشير إلى أنَّ (ثلاثًا وخمسين) جنديًا مِنْ أصل (واحد وستين) جنديًا خدموا في أحدى الفرق الرومانية في مصر كانوا مِن سوريا وآسيا الصغرى، وهناك جنديين من آسيا الصغرى خدموا في مقدونيا (العمر، ٢٠١٠، الصفحات ٨٣-٨٤).

كثيرًا ما استعملت روما جيوش حلفائها، مِنَ الممالك والعشائر العربية التي استمرت تحت رعايتها، ففي سنة ٥٣ ق.م قاتل العرب إلى جانب الرومان في معركة كراهي بقيادة أميرهم أريام، فعلى سبيل المثال كان الجيش الروماني الذي حاصر القدس سنة ٧٠م قد جلب مِنْ سوريا ومِنْ ولايات الدولة الرومانية المجاورة، حيث قاتل فيه أنطوخيوس الرابع Antiochus ملك كومجيني Commagene، وكان تحت إمرته عدد كبير مِنَ الرجال المسلحين على الأسلوب المقدوني (D'Amato، ٢٠١٧، صفحة ١٠)، كما شاركت فيه قوات كيليكيا Cilicia، التي كانت هي الأخرى تعد جزءًا من ولاية سوريا الرومانية خلال هذه الحرب، كما أنَّ قوات جالاتيا Galatia (أنقرة) وكبادوكيا وتدمر قاتلت في هذه الحرب إلى جانب الرومان (J, P، 1998، صفحة ١٦٨).

ويلاحظ أنَّ قوات تدمر أخذت تشارك الرومان فيما بعد، في جميع نشاطاتهم الحربية؛ فقد ساهمت هذه القوات في عهد دوميتيان (٨١- ٩٦م) إلى جانب الفرق الرومانية في محاربة اليهود، عمومًا لقد عدّ الرومان التدمريين وكلاءً لهم في المنطقة فسمحوا لهم بالاحتفاظ بقواتهم العسكرية للمحافظة على أمن البادية السورية وتأمين سلامة الطرق وحراسة القوافل والمواضع التي تخدم تجارتها (النوري، ٢٠١٧، صفحة ١٤٢).

خاتمة البحث ونتائجه

تتبع البحث تاريخ سوريا في مدّة حساسة مِنْ تاريخ الدولة الرومانية؛ شهدت سقوط النظام الجمهوري، وظهور النظام الإمبراطوري فيها، وما رافقها مِنْ مخاض عسير ترافق بسلسلة مِنْ الحروب الأهلية. نخلص مِنْ ذلك بعدد مِنَ النتائج أبرزها:

١) إنَّ ضعف السلوقيين وتراجع قوتهم وإهمالهم للأمن والاستقرار في سوريا كانت مدعاة لتدخل الرومان فيها وضمّها.

٢) بعد أنْ ضمّ الرومان سوريا إلى إمبراطوريتهم اصطدموا بمطالب الفرس التاريخية في منطقة شرق المتوسط.

٣) تؤكد جميع الدراسات التاريخية انتقال مركز الثقل في العالم الروماني إلى منطقة شرق المتوسط منذ أنْ اتخذها يوليوس قيصر مقرًا له.

٤) منذ أنْ ضمَّ الرومان سوريا إلى إمبراطوريتهم تمحورت سياستهم في الشرق حول عقدة الخوف على أمن سوريا واستقرارها مِنْ هجوم فارسي مباغت؛ لاسيما أنَّ سوريا كانت تنتهي في موانئها جميع خطوط الشرق التجارية القادمة عبر البر أو عبر المحيط الهندي والخليج العربي.

٥) لقد فشلت جميع محاولات الرومان العسكرية خلال العصر الجمهوري للسيطرة على بلاد فارس وتخليص خطوط التجارة الشرقية مع الهند والصين مِنْ مكوسها الباهظة.

٦) إنَّ قبول أغسطس بمهادنة الفرس وعدم شن حملة عسكرية عليهم لا يعبر إلَّا عن نصف الحقيقية؛ لأنَّ سياسة روما الاستعمارية أملت عليه أنْ يفتش عن منفذ آخر إلى الهند والصين باحتلال اليمن وموانئ البحر الأحمر.

٧) إنَّ تحول نهر الفرات إلى حدود الإمبراطورية الرومانية الشرقية لم يكن في عقيدة الرومان إلَّا خطوة، ستعقبها خطوات خلال القرن الثاني الميلادي.

٨) تمثلت سياسة روما في داخل سوريا بالاعتراف بالأمراء المحليين ما داموا اقوياء وسندًا لروما، إلا أنها كانت تضم إماراتهم متى لمست منهم الضعف.
٩) سعت روما إلى صبغ سوريا بالصبغة الرومانية عن طريق بناء المستعمرات وتطويع أبناء سوريا في الجيش الروماني، وإشاعة اساليب الحياة الرومانية واللغة اللاتينية فيها.
١٠) فشلت جميع محاولات الفرس لطرد الرومان مِنْ شرق المتوسط واحتلال سوريا، بل على العكس تحولت سوريا إلى قاعدة متقدمة للقوات الرومانية لغزو بلاد فارس طوال القرن الثاني الميلادي.
١١) تمتعت المدن السورية خلال القرنين الأول و (Placeholder1) الثّاني الميلاديين (عصر السلام الروماني) بنوع مِنَ الهدوء والاستقرار والازدهار الاقتصادي.

المصادر والمراجع العربية والمعربة:

١) إبراهيم أيوب، التاريخ الروماني، الشركة العالمية للكتاب، بيروت ١٩٩٦م.
٢) إبراهيم السليمان، الخليج العربي في العصور الكلاسيكية ٣٣٣ ق.م – ٢٢٤م، دراسة تاريخية أثرية، رسالة معدة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، جامعة دمشق ٢٠٢٢م.
٣) أبو اليسر فرح، الشرق الأدنى في العصرين الهلنستي والروماني، عين للبحوث والدراسات الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ٢٠٠٢م.
٤) أحمد فيصل اللهيبي، الحكومة الثلاثية الأولى في بلاد الرومان –دراسة تاريخية، رسالة معدة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، جامعة بغداد ٢٠١٥م.
٥) أديث هاملتون، الأسلوب الروماني في الأدب والفن والحياة، ترجمة حنا عبود، منشورات وزارة الثقافة– المعهد العالي للفنون المسرحية، دمشق ١٩٩٧م.

٦) أسمهان الجرو، موجز التاريخ السياسي القديم لجنوب شبه الجزيرة العربية (اليمن القديم)، كلية الآداب، جامعة عدن ١٩٩٦م.
٧) أندرية إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، روما وإمبراطوريتها، ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، ط٢، منشورات عويدات، باريس–بيروت ١٩٨٦م.
٨) بديع العمر، الجيش الروماني البري في الفترة الإمبراطورية (٣١ ق.م – ٢٨٤م)، رسالة معدة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، جامعة دمشق ٢٠١٠م.
٩) جان بابليون، إمبراطورات سوريات، تاريخ فترة التأثير السوري في الإمبراطورية الرومانية، ترجمة يوسف شلب الشام، العربي للطباعة والنشر، دمشق ١٩٨٧م.
١٠) جونز، مدن بلاد الشام حين كانت ولاية رومانية، ترجمة إحسان عباس، دار الشرق، عمان ١٩٨٧م.
١١) خليل سارة، تاريخ الوطن العربي في العصور الكلاسيكية، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٩م.
١٢) دانتزر وآخرون، سورية الجنوبية (حوران)، بحوث أثرية في العهدين الهيلليني والروماني، تعريب أحمد عبد الكريم وآخرون، دار الأهالي، دمشق ١٩٨٨م.
١٣) رجب سلامة عمران، الفكر العسكري الروماني بين الدفاع والهجوم والتوسع والاستعمار حتى نهاية العصر الجمهوري، مطبعة دار الروضة، القاهرة ٢٠١٠م.
١٤) رحاب صافي، الولاية العربية في العصر الروماني من تراجان إلى ديوقليتيان (دراسة تاريخية – حضارية خلال الفترة ١٠٦– ٣٠٥م)، رسالة معدة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ القديم، جامعة دمشق ٢٠١١م.

١٥) ﺳﺘﺮابون، الجغرافيا، ترجمة: حسان اسحق، دار علاء الدين، دمشق ٢٠١٧م.
١٦) سيد أحمد علي الناصري، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري، ط٢، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٩١م.
١٧) سيد أحمد علي الناصري، الرومان والبحر الأحمر، الدارة، العدد ٢، الرياض ١٩٨١م.
١٨) شيفمان، المجتمع السوري في عصر البرينسيبات، من القرن ١-٣م، ترجمة حسان إسحق، دمشق ١٩٨٧م.
١٩) عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني عصر الثورة من تيبيريوس جراكوس إلى أوكتافيوس أغسطس، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٨م.
٢٠) عبد الله السليمان، سورية في عهد الإمبراطورية الرومانية، مجلة المعرفة الصادرة عن وزارة الثقافة في سورية-دمشق، العدد ٦٧١، السنة ٥٨، آب ٢٠١٩م.
٢١) مأمون الخطيب، الطرق الرومانية في سورية، دراسة تاريخية أثرية (٦٤ ق.م-٣٣٠م) رسالة معدة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، د.ت.
٢٢) محمد حرب فرزات، مدخل إلى تاريخ فارس وحضارتها القديمة، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٥م.
٢٣) محمد الزين، الآثار الرومانية، منشورات جامعة دمشق
٢٤) محمد الزين، محمد محفل، دراسات في تاريخ الرومان، ج٢، ط٨، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٥م.
٢٥) مفيد رائف العابد، دراسات في تاريخ الإغريق، ج٢، ط٤، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٢م.
٢٦) مونتسكيو، تأملات في تاريخ الرومان، أسباب النهوض والانحطاط، ترجمة عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ٢٠١١م.

٢٧) ميثم النوري، العلاقات الفرثية الرومانية ٢٤٧ ق.م - ٢٢٦م، دار مكتبة عدنان، بغداد ٢٠١٧م.
٢٨) نبيه العاقل، تاريخ العرب القديم، العصر الجاهلي، مطبعة الداودي، منشورات جامعة دمشق ١٩٨٣م.
٢٩) هشام الصفدي، تاريخ الرومان، في العصور الملكية والجمهورية والإمبراطورية حتى عهد الإمبراطور قسطنطين، ج٢، دار الفكر الحديث لبنان ١٩٦٧م.
٣٠) ول. ديورانت، قصة الحضارة، قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانية، ج٢، مج٣، ترجمة محمد بدران، بيروت ١٩٨٨م.

المراجع الأجنبية:

1) Babnis, T., Augustan Poets on the Roman-Parthian Treaty of 20 BC., Classica Cracoviensia 20:5-43, March 2018.
2) Boak, A, E, R., A History of Rome to 565 A.D., New York 1921.
3) Bryce, T., Ancient Syrian a three thousand year history., Oxford University Press 2014.
4) D’Amato, R., Roman Army Units in the Eastern Provinces 31 BC – AD 195., Britain 2017.
5) Debié. M., The Eastern Provinces of the Roman Empire in Late Antiquity, London, Routledge 2018.
6) Dillon, M., & Garland, L., The Ancient Romans; History and Society from the Early Republic to the Death of Augustus., published by Routledge., New York 2021.
7) Gawlikowski, M., The Syrian Desert under the Romans., Oxford 1997.

8) Lewis. B., The Middle East 2000 years of History from the Rise of Christianity to the Present Day, London, 1996.
9) Madejski, P., The Death of M. Licinius Crassus: Between Mors Aurata and Euripides' Bacchae., Res historica 49, 2020.
10) Roth, J, P., The logistics of the Roman army at war (264 B.C.-A.D. 235)., Leiden; Boston ; Köln: Brill, 1998.
11) Sartre, M., Historical Narrative., In Book; A companion to the Hellenistic and Roman Near East., edited by Ted Kaizer, Durham University, Durham, UK, 2022.
12) Serena, M., Achaemenid Persia: Images and Memory at Rome (205 BCE – 115CE)., PhD in Classics, School of Humanities - Department of Classics, University of Reading, September 2019.
13) Syvänne, I., Parthian Cataphract vs. the Roman Army 53 BC-AD 224., HISTORIA I ŚWIAT, nr 6; 2017.
14) Tiryaki S., Roman Empire's Euphrates Lims (B.C. 129 – A.D. 230)., International Periodical for the Languages, Literature and History of Turkish or Turkic Volume 11/1 Winter 2016.
15) Wijlick, V., & Hendrikus Antonius Margaretha., Rome and Near Eastern Kingdoms and Principalities, 44-31 BC: A Study of Political Relations During Civil War., Durham theses, Durham University 2013.